DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE



مأمون بني أيوب

"المعظم عيسى"

تأليف

أحمد أحمد بدوي

مدرس بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

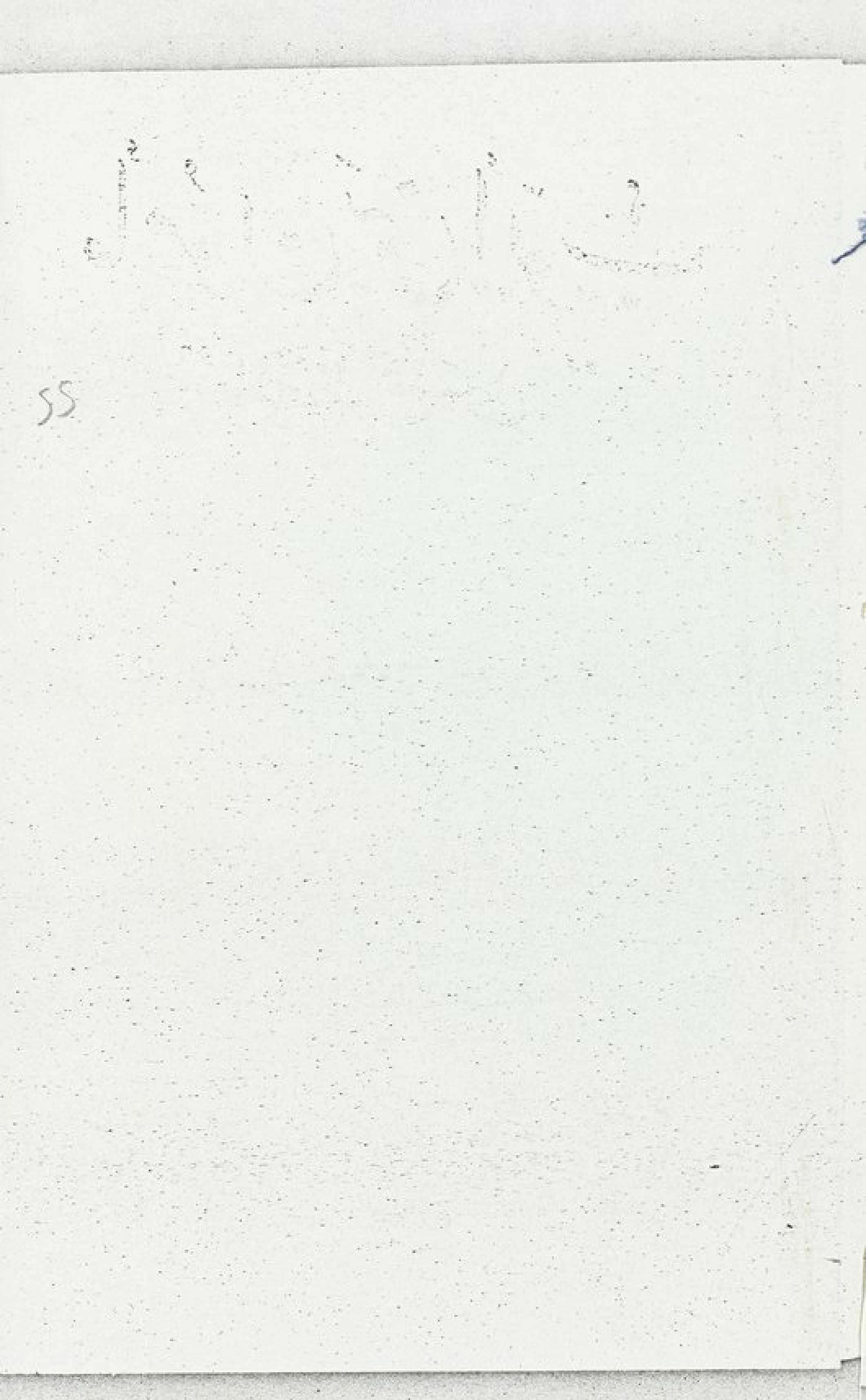
مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

(صبحي وشركاه)

مطبعة لجنة البيان العربي

١ شارع [illegible]



55

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أعجبت ، وأنا أدرس عصر الحروب الصليبية ، بشخصية المعظم عيسى بن الملك العادل ، وزادنى حباً لهذا الرجل ماله من صفات تجعله أثيراً لدى النفوس : من ديمقراطية متأصلة فى نفسه ، وحب للعلم وتشجيع لأهله ، وغرام بالأدب ، ومساهمة فى التأليف ، وكنت كلما ازددت اتصالاً به ، ازددت تقديراً له ، وإعجاباً به ، فأحببت أن أخصه ببحث يتناوله من جميع نواحيه ، وهأنذا أقدم ما استطعت أن أصل إليه : من تاريخ حياة هذا الرجل ، وما اهتديت إليه : من أدبه وكتبه ، راجياً أن أجلو بعض صفحات من حياة حاكم خدم الإسلام والعلم ، وكان له فى هذا المجال أطيب الآثار .

المؤلف

الأسرة الأيوبية

فى قبيلة كردية كانت تسكن بلدة « دُوِين » ، فى آخر « أذربيجان » ، نشأ أيوب بن شادى ، وأخوه شيركوه ، وقد قدم بهما والدهما إلى العراق ، والتحقا بخدمة مجاهد الدين بهروز متولى شِحْنَة[1] بغداد ، فرأى بهروز من نجم الدين أيوب رأياً وعقلاً ، فولاه « تَكْرِيتَ » ، وكانت إقطاعاً له ، فأقام بها نجم الدين ومعه أخوه أسد الدين شيركوه ، إلى أن انهزم الأتابك زنكى بن آق سنقر، من الخليفة المسترشد العباسى ، سنة ٥٢٦ هـ ، ووصل إلى « تكريت » فأقام له نجم الدين المعابر على نهر دجلة ، فعبر زنكى من هناك ، وبالغ نجم الدين فى إكرامه ، فحفظ له زنكى هذا الجميل ، حتى إذا اضطر نجم الدين إلى الخروج من تكريت سنة ٥٣٢ هـ ، فكر هو وأخوه فى الذهاب إلى الموصل ، حيث عماد الدين زنكى ، فأحسن لقاءهما ، وأقطعهما إقطاعات كثيرة ، وصارا من جملة أجناده ، وظلا فى خدمته ، وخدمة ابنه من بعده : نور الدين محمود ، وأصبحا من أكابر امرائه . ولما اشتد التنافس بين نور الدين والصليبيين على امتلاك مصر اختار نور الدين لقيادة الحملة التى وجهها إلى مصر أسد الدين شيركوه ، فاستصحب هذا معه ابن أخيه : صلاح الدين ، وكانت الخلافة الفاطمية يومئذ تلفظ فى مصر أنفاسها الأخيرة ، واستطاع شيركوه أن يلى الوزارة للعاضد آخر خلفاء الفاطميين ، فلما مات حل صلاح الدين مكانه ، ولم يلبث هذا أن أسقط الخلافة الفاطمية ، وأعاد الدعوة فيها لبنى العباس ، على أنه تابع لنور الدين ، وعمل صلاح الدين منذ ذلك الحين على الاستقلال بمصر ، وصمم على أن يقوم بنصيبه فى حرب الفرنج مقتصي

---

(١) الشحنة بكسر الشين : من فيه الكفاية لضبط البلد من قبل السلطان : الشرطة.

ديار الإسلام ، وهيأت الظروف لصلاح الدين أن يوحد تحت حكمه مصر والشام ، وأن ينقض بقوته الموحدة على الصليبيين ، فينتزع منهم ما اغتصبوه ، ويفتح بيت المقدس ، ويكاد يلقى بالفرنج جميعاً إلى البحر . وقد خلد له التاريخ هذا الجهاد الشاق ، وحفظ اسمه بين أسماء الأبطال الخالدين .

وقد عاون صلاح الدين فى الحكم والجهاد أخوه العادل أبو بكر ، فكان له العضد والساعد ، والمستشار الأمين ، والمخلص فى إبداء الرأى ، والموطد لعرش الأسرة فى أرجاء هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ، ينوب عن أخيه فى الحكم إذا غاب ، ويقود معه الجيش فى معارك القتال ، ويسود علاقة الأخوين الحب والصفاء والإخلاص . وبفضل هذا التعاون وما أظهره بقية أبناء الأسرة : من تضامن ، وتكاتف ، والتفاف حول صلاح الدين ، أسس عرش الأيوبيين بمصر والشام ، وتوطدت أركانه ؛ فقد استعان صلاح الدين ببنى أسرته ، ووضعهم حكاماً فى أنحاء امبراطوريته ، فأخلصوا له وعاونوه .

فلما مات صلاح الدين دب الخلف بين أبنائه ، وعادى بعضهم بعضا ، وتنازعوا أمرهم بينهم ، ففشلوا وذهبت ريحهم ، واستطاع العادل أن يستولى على مقاليد الأمور فى إمبراطورية أخيه ، وكان العادل سياسياً محنكا ، قديراً على تصريف الأمور ، وتدبير شئون الدولة ، فأراد أن يعود بنيه الحكم ، وأن يكتفى هو بالإرشاد والتوجيه ؛ فقسم مملكته بين بنيه ، فكانت مصر لابنه الكامل محمد ، والشام لابنه المعظم عيسى ، والشرق لابنه الأشرف موسى . وصار هو يتنقل بين البلاد ، وإذا حزب أمر كان رأيه فى المشكلة مصباحهم الهادى .

ولم تعن الأسرة الأيوبية بتوطيد أساس ملكها فحسب ، ولكنها عنيت إلى جانب ذلك بنشر العلم وإذاعته فى الناس ، فشيدوا المدارس فى أرجاء الإمبراطورية ، واشترك فى تشييدها أمراء الأسرة وسيداتها ؛ بل خدمها وعتقاؤها ، وبذلوا

للعلماء وقربوهم إليهم ، ورحلوا هم للاستماع لهم والأخذ عنهم ، ووسّعوا عليهم في الرزق ، وحبّبوا إلى العلماء الرحلة إليهم ، ولم يضنّوا عليهم بمال ، فكان ذلك سبباً في نهضة علمية شاملة . وإذا كانت الفلسفة من بين العلوم هي التي لم ينلها التشجيع في عهد صلاح الدين ، فقد عاد إليها الازدهار في عهد المعظم بن العادل والناصر داود بن المعظم .

والتف حول أبناء الأسرة الأيوبية طائفة كبيرة من الشعراء ، وسجلوا أمجادهم ، وخلدوا ذكرهم ، ونالوا خيرهم وبرّهم ، وتشبه الأيوبيون في ذلك بالفاطميين الذين كانوا جالسين على عرش مصر من قبلهم .

ويذكر التاريخ لهذه الأسرة بلاءها الحسن في حرب الفرنج ، فقد حمل صلاح الدين راية الجهاد بيد قوية ، ومضى يحارب الصليبيين في غير رفق ولا هوادة ، حتى استردّ معظم ما اغتصبوه ، ولم يبق في يدهم منه سوى القليل ، واتبع العادل سنة أخيه وإن لم تقع في عهده حروب كحروب الجبابرة التي وقعت في عهد أخيه من قبل ، ويقال : إنه مات حسرة على سقوط برج دمياط في يد العدو ، سنة ٦١٤ هـ ، واجتمع بنوه من بعده على حرب الفرنج ، وتم لهم النصر المؤزر في دمياط ، وكان للمعظم عيسى دور في ذلك النصر عظيم .

مولده ونشأته

شهدت القاهرة عام ستة وسبعين وخمسمائة للهجرة (١١٨٠ م) مولد أحد أطفال العادل أبي بكر بن أيوب سمى : عيسى ، ولقب بالملك المعظم ، وكان ميلاده في قصر الزمرد أحد القصور الرائعة التي كانت للفاطميين ، وورثها عنهم الأيوبيون . ولسنا ندرى أطال مقامه بالقاهرة ، أم انتقل منها صغيراً إلى دمشق ، ولكن نشأته العلمية كانت بالشام ، على ما أرجح ، قرأ القرآن ، ودرس علوم

الأدب على أحد أعلام العصر ، وهو تاج الدين الكندى ، أخذ عنه كتاب سيبويه فى النحو وشرحه للسيرافى ، وكتاب الحماسة لأبى تمام ، كما تلقى عنه القراءات ، وقرأ عليه فيها كتاب الحجة لأبى على الفارسى . ودرس الحديث ، سمع فيه مسند أحمد بن حنبل ، على حنبل بن عبدالله . وتفقـّه على مذهب أبى حنيفة ، حفظ فيه القدورى ، واعتنى بالجامع الكبير ، وتلقى المذهب فى أول الأمر على فخر الدين المازى ، ثم على رجل من كبار رجاله ، وهو جمال الدين الحصيرى ، ولست أدرى السبب الذى دفعه إلى اختيار مذهب أبى حنيفة ، والانصراف عن مذهب الشافعى الذى كان عليه أهل بيته جميعاً ، ولا يبين لنا السر فى هذا الاختيار ما ذكره هو على سبيل الفكاهة ، عند ما سأله أبوه العادل فى ذلك قائلا : كيف اخترت مذهب أبى حنيفة ، وأهلك كلهم شافعية ؟ ! فأجاب أباه مداعباً : ياخُوند (١) ، أما ترضون أن يكون فيكم رجل واحد مسلم ؟ وتعصب المعظم لمذهب أبى حنيفة تعصباً كبيراً ، فمن ذلك أنه عزل خطيب المسجد الأقصى وكان شافعياً ، وولى الخطابة رجلا حنفياً ، وأمر المؤذنين ألا يؤذنوا فى تكبير الصلوات بالحرم إلا خلف الإمام الحنفى ، ليس غير . وبنى بالحرم الشريف قبة وقف عليها وقفا جليلا ، على أن يدرس فى تلك القبة الفقه والقراءات السبع ، وشرط ألا يصرف من وقفها شىء إلا للحنفية فقط . ولما وقف المعظم على تاريخ بغداد ، وفيه مطاعن على أبى حنيفة ، رواها الخطيب ، رد عليه الملك المعظم فى ذلك ، وصنف كتابا ، سماه : السهم المصيب فى الرد على الخطيب ، سوف نتحدث عنه عند ذكر مؤلفاته .

وأراد المعظم أن يذلل السبيل إلى معرفة مذهب أبى حنيفة ، فأمر الفقهاء أن يجردوا له مذهبه دون صاحبيه ، فجرّدوا له المذهب فى عشرة مجلدات ، وسماه :

---

(١) خوند : أمير ، ومنها (خان) .

التذكرة ، فكان لا يفارقه سفراً ولا حضراً ، وكتب على ظهر كل مجلدة : أنهاه حفظاً عيسى بن أبى بكر بن أيوب . قال سبط ابن الجوزى فى كتابه : مرآة الزمان : فقلت له : ربما يؤخذ هذا عليك ؛ لأن أكبر مدرس بالشام يحفظ القدورى مع تفرّغه ، وأنت مشغول بتدبير الممالك ، تكتب خطك على عشرة مجلدات أنك قد حفظتها ؛ فقال : ليس الاعتبار بالألفاظ ، وإنما الاعتبار بالمعانى ؛ فاسألونى عن جميع مسائلها ، فإن قصرت كان الصحيح معكم ، وإلا فسلموا لى ما قلت .

وشارك هو نفسه فى التأليف فى الفقه على مذهب أبى حنيفة كما سنرى .

ومع ذلك أقرّ مخالفته لمذهبه عند ما رأى صواب الرأى فى هذه المخالفة ، روى صاحب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب أن المعظم قال لوالد سبط ابن الجوزى يوماً : أكان لمدينة المعرّة سور ، فقال : نعم ، وإنما الفرنج لما ملكوا المعرة ، واستنقذها منهم الشهيد أتابك بن سنقر ، هدم سورها . ثم ذكر له واقعة جميلة فعلها أتابك مع المعرّيين ، وهى أنهم طلبوا منه أن يردّ عليهم أملاكهم التى كانت بأيديهم ، قبل أن يملكها الفرنج ، فرسم بردّها إليهم ، فقال له بعض الفقهاء : إنّ من مذهب أبى حنيفة أن الكفار إذا أخذوا من المسلمين بلدة ، وفيها أملاك للمسلمين ملكوها ، وإذا فتح المسلمون تلك البلدة كانت الأملاك لبيت المال ، وحسّنوا للأتابك الاستيلاء على تلك الأملاك ، وألاّ يردها إلى ملاّكها ؛ لأنه حنفى ؛ فقال أتابك الشهيد : لا ، والله . بل نردّها عليهم ؛ إذا كنا نحن نأخذ أملاكهم ، والإفرنج تأخذ أملاكهم ؛ فأى فرق بيننا وبين الإفرنج ؟! قال والد السبط بعد ذلك : لقد غلطت فى هذه الحكاية ؛ لأنّ المعظم حنفى ، وفى هذا القول تشنيع على أبى حنيفة ، ولكن السلطان تغاضى عن ذلك ، وأظهر استحسانه .

وربما كان من الأسباب التى دفعت المعظم إلى اختيار مذهب أبى حنيفة والتعصب له ، هو ما يمتاز به هذا المذهب من اعتماده كثيراً على القياس ، وذلك يتناسب إلى مدى بعيد مع ما طبع عليه المعظم من الحرية الفكرية .

وربما كان من الأسباب إباحة أبى حنيفة لشرب الأنبذة التى كان المعظم مغرماً بشربها ، فقد أباح أبو حنيفة شرب النبيذ ما دام لم يسكر ، وقصر التحريم على الخمر والإسكار .

وأقبل المعظم عيسى على التعلم ، لا يثنيه عنه شاغل مهم ، ولا يصرفه عنه سفر ولا جهاد . ذكر صاحب مفرج الكروب أنه وقف على نسخة من كتاب سيبويه ، وعليها خط المعظم فى عدة مواضع ، يقول فى بعضها : أنهيت هذا الكتاب مطالعة ومراجعة ، وأنا منازل لمدينة « أرسوف » ، وفى بعضها يقول : أنهيته مطالعة ومراجعة ، وأنا بنابلس .

وعرف المعظم للعلم قدره ، ولأهل العلم مقامهم ، روى مؤرخوه أنه كان يتردد على أستاذيه : الحصيرى ، والكندى ، فى أكثر الأوقات ، وكان يمشى من القلعة راجلا إلى دار تاج الدين الكندى ، والكتاب تحت إبطه . وكان يجلس فى تواضع بين تلامذة الكندى الذين يقرءون عليه ، من غير أن يمتاز عليهم فى شىء ، بل كان ينتظر راضياً حتى يأتى دوره فى القراءة على أستاذه .

ووجد لذته الكبرى فى الجلوس مع العلماء ، والبحث معهم ، ومناقشتهم ، ولهم منه التبجيل والإكرام .

أساتذته وبطانته

اشتهر من بين أساتذة المعظم أربعة كانوا من أشهر رجال عصرهم ، برع أحدهم في النحو ، وثانيهم في الفقه ، وثالثهم ورابعهم في الحديث .

أما الأول فتاج الدين الكندي الذي ولد ببغداد ، وتلقى بها ثقافته ، وظهر نبوغه في سن مبكرة : حفظ القرآن ، وقرأه بالقراءات العشر ، ودرس النحو واللغة والأدب والحديث والعروض والفقه ، وانتقل تاج الدين إلى دمشق ، وارتفعت منزلته فيها حتى استوزره أحد أمرائها .

ولكن تاج الدين شغل بالتعليم والإفادة أكثر مما شغل بالتأليف ، فلم يضع كتبا تناسب ما حازه من شهرة وبعد صوت ، فله حواش على شرح الواواء لديوان المتنبي ، وتعليقات على خطب ابن نباتة ، وكتاب سماه : نتف اللحية من ابن دحية ، رد فيه على ابن دحية الكلبي في مسألة نحوية . ومات التاج في حياة المعظم عيسى ، وكان في حياته وبعد مماته ، موطن مدح الشعراء وتمجيدهم ، فمما مدح به قول الشاعر :

لذ بباب الكندي : زيد أبي اليم	ن ، إمام الأنام ، فرد الزمان
فمقول الأنام في الفهم عنه	ذات فقر للفضل والعرفان
هو بحر فيه نفيس لآل	وسواه كالآل عند العيان
صورة صورة من السؤدد المح	ض ، وطيب الأنفاس والإحسان
علم سيبويه منفرد فيه	بإسناده وبالإتقان
والتفاسير ، والقراءات ، والتج	ويد فيها ، ومشكل القرآن
وحديث النبي ، والقول فيه	قوله في غريبه والبيان
والتواريخ ، والقوافي من الشع	ر ، وعلم العروض والأوزان
يقظ ، واسع المجال ، رحب الب	اع فيما ينأى عن الأذهان

ومما رثى به قول ابن الساعاتى من قصيدة بدأها بقوله :

هوى قمر العلياء يا سارى الجنح ... فهيهات أن تمحو الدجى آية الصبح
كأن نجوم الأفق حيرى لفقده ... وقد عكفت حزناً من الليل فى مسح
وغاضت أهاضيب السماحة والندى ... وأخلافها(١) ما إن تدر على المسح
مضى الحسب الكندى حان سبيله ... فلا أحد يرجى لمنع ولا منح

وأما الحصيرى فقد انتهت إليه رياسة مذهب أبى حنيفة فى زمانه ، ولما دخل دمشق رحب به المعظم ، وفوض إليه تدريس المدرسة النورية .

وعنى الحصيرى بالتأليف ، فشرح الجامع الكبير الذى ألفه صاحب أبى حنيفة : الإمام محمد بن الحسن الشيبانى — شرحين : أحدهما مختصر ، زاد فيه على ما فى الجامع زهاء ألف وستمائة وثلاثين مسألة ، وكثيراً من القواعد الحسابية ، وبالغ فى الإيضاح بالنظائر والشواهد ، وإيراد الفروق بأوجز العبارات ، وهو فى مجلدين ، وثانيهما المطول الذى بلغ فى الجمع والتحقيق الغاية ، وهو المسمى بالتحرير فى شرح الجامع الكبير (٢) ، وهو فى ثمانى مجلدات ، ألفه حين قرأه عليه الملك المعظم . كما ألف للملك الناصر : داود بن المعظم ، وكان تلميذه أيضاً ، كتاب المطلوب فى العلم المرغوب ، وهو كتاب فى الفتاوى . وله الطريقة الحصيرية ، فى علم الخلاف بين الشافعية والحنفية (٣)

ويذكر مؤرخوه أنه كان من العلماء العاملين ، رقيق القلب ، كثير الصدقة ، نزيهاً عفيفاً ، كبير العقل ، عظيم الدين ، تبدو عليه الهيبة والوقار .

وأما الثالث فأبو على حنبل بن عبد الله بن الفرج ، سمع المسند فى بغداد ،

---

(١) أخلاف : جمع خلف وهو للناقة كالضرع للشاة .

(٢) مخطوط بدار الكتب رقم ٩٩ فقه حنفى .

(٣) مخطوطة بدار الكتب رقم ٣٦٦ — أصول الفقه .

وكان بها فقيرا معدما ، فقيل له لو سافرت إلى الشام . . . فقدم إلى دمشق ، وألقى دروسه بالكلاسة ، وسمع المعظم المسند منه فى جمع كثير ، وأكرمه المعظم إكراما ضخما أغناه ، وصار له مال جم .

أما الرابع فمحمد بن عبد الغنى المقدسى ، الذى رحل لسماع الحديث ، ثم عاد إلى دمشق ، وكان له حلقة بجامعها ، وكان حافظا زاهدا ورعا ، صحب المعظم عيسى ، وسمع بقراءته الكثير .

وأحاط المعظم نفسه بجماعة من أدباء عصره وعلمائه ، لا يفارقونه فى سفر ولا حضر ، منهم : فخر القضاة نصر الله بن هبة الله المعروف بابن بصاقة ، وكان حنفياً على مذهبه ، درس الأدب فى مصر ، وتقدم فى النظم ، وكتابة الرسائل ، وله ديوان شعر ، وعلت منزلته عند المعظم ، وقدره الناس ، ومدحه الشعراء .

ومنهم : جمال الدين بن شيث ، وكان مصريا أيضا ولد بإسنا ، ونشأ بقوص ، وتلقى دراسته بها ، وعنى بالأدب نظمه ونثره ، وكان يوصف بالورع والدين والمروءة ، وكان بينه وبين المعظم مداعبات ، كتب إليه مرة أنه لما فارقه ودخل منزله ، طالبه أهله بما حصل له من ابن السلطان ؟ فقال لهم : ما أعطانى شيئا ؟ فقاموا إليه بالخفاف وصفعوه ، وكتب بعد ذلك شعرا :

وتخالفت بيض الأكف ، كأنها الـ تصفيق عند مجامع الأعراس
وتطابقت سود الخفاف ، كأنها وقع المطارق من يد النحاس

فرمى المعظم الرقعة إلى فخر القضاة بن بصاقة ، وقال ، أجبه عنها ؛ فكتب إليه نثرا ، وفى آخره :

فاصبر على أخلاقهن ، ولا تكن متخلقا إلا بخلق النـــاس
واعلم إذا اختلفت عليك بأنه « ما فى وقوفك ساعة من باس »

وبقى من آثار ابن شيث الأدبية كتابه : معالم الكتابة ، ومغانم الإصابة ، وضعه فى آداب الكاتب الديوانى ، وما يجب أن يتصف به : من الصفات الخلقية والعلمية ، وفى منهج كتابة الرسائل ، وعقد فيه فصلا للبلاغة وما يتصل بها . وقد تولى ابن شيث كتابة الإنشاء للمعظم .

ومنهم : شرف الدين محمد بن نصر المعروف بابن عنين ، وكان من أكبر شعراء عصره ، نفاه صلاح الدين من دمشق ، حين اشتط فى شعره فى نقد الدولة ، وهجاء القائمين بها من وزراء وقضاة وقواد ، وغمز علماء دمشق ورؤسائها وأعيانها . وظل ابن عنين فى مغتربه حتى مات صلاح الدين ، وآلت إمبراطوريته إلى العادل الذى قسمها بين بنيه ، فكانت دمشق من نصيب ابنه المعظم ، وعاد إليها ابن عنين حينئذ ، فأقبل عليه الملك ، وجعله من أقرب المقربين إليه ، يسر لحديثه ، ويطرب لدعابته ، ويعتمد عليه فيما يهمه من الأمور .

وكان ابن عنين فضلا عن شعره ، عالماً بفنون الأدب ، واسع الرواية للشعر وأخبار العرب ، متقناً للغة ، يحفظ كتاب الجمهرة لابن دريد ، طويل الباع فى النحو ، الذى كان المعظم يعنى به أيما عناية ، مشاركا فى الحديث والفقه ، ملما بألوان الثقافة الإسلامية لعهده : من تفسير ، ومنطق ، وفلك ، وحساب ، وهندسة ؛ فكان ذلك من الأسباب التى دفعت المعظم إلى زيادة تقريبه ، ورفع مكانته ، حتى ولاه وزارته ، وكان يسفر عنه إلى الممالك المجاورة ، ولكنه مع شدة رغبته فى صحبة المعظم ، رغب أن يعفيه من الوزارة ، واستقال من حمل أعبائها ، وكتب إليه .

أقلنى عثارى ، واحتسبها صنيعة ... يكون برحماها ، لك الله جازيا
كفى حزناً أن لست ترضى ، ولا أرى ... فتى راضياً عنى ، ولا الله راضيا
ولست أرجى بعد سبعين حجة ... حياة ؛ وقد لاقيت فيها الدواهيا

ويظهر أن الشعب فى دمشق لم يكن راضياً عن وزارته ؛ لسابق تاريخه

فى الهجاء وخبث لسانه . ولكن المعظم لم يرض أن يقيله ، وبقى على ذلك حتى توفى الملك . وشعر ابن عنين وأخباره تنطق بقوة صلته بالمعظم ، كتب إليه وهو مريض :

أُنظر إلى بعين مولىً لم يزل   يولى الندى ، وتلاف قبل تلاف
أنا كالذى : أحتاج ما تحتاجه   فاغنم ثوابى والثناء الوافى

فلما قرأها أتاه بنفسه ، ومعه ثلاثمائة دينار ، وقال : هذه الصلة ، وأنا العائد .

أما الدعابات الأدبية التى كان الشاعر يطرف بها الملك المعظم فكثيرة ، منها ما قاله يداعب جمال الدين بن شيث ، والرشيد بن النابلسى ، وهو من الشعراء الذين كانوا يمدحون بنى أيوب ، ويضيف نفسه إليهما :

أنا ، وابن شيث ، والرشيد ، ثلاثة   لا ترتجى فينا لخلق فائدة
من كل من قصرت يداه عن الندى   يوم الجدا (١) ، وتطول عند المائدة
فكأننا واو بعمرو ألحقت   أو إصبع بين الأصابع زائدة

وقال يداعب ابن شيث أيضاً ، وبعض رجال حاشية الملك المعظم ، وكان ابن شيث مغرما بصناعة الكيمياء :

أنا وابنُ شيثٍ فى الخيام زيادةٌ   وابنُ النفيس ، وذا المُلِقُ الصوفى
لا نَيْلُنا يُرجى ، ولا أضيافنا   تُقرى ، ولا ندعى لدفع مخوف
أما الملق ، كما علمت ، فنسكه   نصب على زبديّة ورغيف
وفتى بجيلة إن قرا ما خطه   أبصرت منه غرائب التصحيف
ومهوّس بالكيمياء ، يقطع الأوقات بالآمال والتسويف
يبغى من الأبوال تبراً خالصاً   عقل ، لعمر أبيك ، جدُّ سخيف

---

(١) الجدا : العطية .

وأنا وشعرى ، كم يعنفنى الورى فيـــه ، فلا أصغى إلى التعنيف

فغضب ابن شيث ، وشق عليه أن يسخر منه ، وشكاه إلى المعظم ، فأحضره ، وأخذ عليه عهداً ألا يتعرض لابن شيث .

وسوف نتحدث عن ابن عنين وشعره فى المعظم ، فى الفصل الذى سنعقده لصلة المعظم بالشعر .

هذه البطانة التى اتخذها المعظم عيسى تدلنا على الاتجاه الذى رسمه لنفسه فى حياته ، ورغبته القوية فى أن يستزيد من العلم ، ويغترف بقدر ما يستطيع من فنون الأدب ، حتى استطاع أن يكتب اسمه بين علماء مذهب أبى حنيفة ، وأن يصفه مؤرخوه بأنه رب السيف والقلم .

كتبـــه

ذكر مؤرخو المعظم أنه اعتنى بالجامع الكبير ، الذي ألفه محمد صاحب أبى حنيفة ، فشرحه فى عدة مجلدات ، ولم ينس هؤلاء المؤرخون أن يذكروا معاونة غيره له فى هذا الشرح . ولم أعثر عليه فيما بين يدى من فهارس المكتبات .

وينسبون إليه كتابا فى العروض ، ربما كان الدافع له على تأليفه رغبته فى أن يستكمل النقص الذى كان يشعر به ، فقد كان لا يقيم وزن الشعر فى بعض الأحيان ، ولم أعثر عليه كذلك . كما لم أعثر على كتاب (الرد على ابن سينا) الذى ينسبه إليه بعض مؤرخيه .

أما الكتاب الذى بقى لنا إلى اليوم من آثاره فكتاب « السهم المصيب فى كبد الخطيب » . دفعه إلى تأليفه حبه لأبى حنيفة ، وتعصبه لمذهبـــه ، فقد وضع الخطيب أبو بكر أحمد بن على بن ثابت البغدادى كتاباً ضخما فى تاريخ بغداد ، ترجم فيه لعلمائها ، ومن بينهم أبو حنيفة ، وفى غضون هذه الترجمة ،

أورد مآخذ على أبي حنيفة طعن بها عليه ، فنصب المعظم عيسى نفسه للرّد على هذه المطاعن ، ومضى ينقضها مسألة مسألة ، على حسب ورودها في الكتاب ، يأتي بقول الخطيب ، ثم يرد عليه . ودلّ المؤلف بكتابه هذا على معرفة واسعة بمسائل الفقه ، وقواعد النحو ، وعلم القراءات ، وأنباء التاريخ ، ورجال الحديث ، وعلى قدرة على الجدل ، والبرهنة ، والاستنباط ، وكان كتاب سيبويه مرجعه في مسائل النحو ، مما ينبيء بعمق دراسته لهذا الكتاب ، وفهمه لدقائقه ، وحفظه لشواهده .

لم يبوّب المعظم كتابه ، ولكنا نستطيع أن نتبين النواحي التي عني بها المؤلف ، ومآخذ الخطيب على أبي حنيفة ، والطرق التي رد بها المعظم عليه .

ففي أول الكتاب رد المؤلف على ما ادعوه من أن أبا حنيفة لا يحسن النحو مستدلين على ذلك بأن رجلا سأله بمكة ، فقال له : رجل شجّ رجلا بحجر ، فقال ليس عليه شيء ، ولو رماه بأبا قبيس . ورد المعظم على ذلك بردّين : أولهما أن قد جاء مثله للعرب ، وهو قولهم :

إن أباها وأبا أباها ❊ قد بلغا في المجد غايتاها

إذ لم يقل : وأبا أبيها .

وثانيهما أنه أورد مسائل تبلغ الثلاثين ، نقلها المؤلف من الجامع الصغير والجامع الكبير ، لصاحب أبي حنيفه محمد بن الحسن ، حكاها عن الإمام أبي حنيفة دالّة على مكانته من علم العربية . فمنها أن الرجل إذا قال لامرأته : أنت طالق إن دخلت الدار ، لا تطلق حتى تدخل الدار ، ولو فتح أن طلقت للوقت ، والفرق بينهما أنه إذا كسر (إن) ، كانت للشرط ، وإذا فتحها كانت بتقدير اللام ؛ فكأنه قال لدخولك الدار .

وانتقل إلى المسائل اللغوية يبين فيها حظ أبي حنيفة من معرفته باللغة، رادا بذلك على من يزعم أنه غير خبير بها.

ومضى إلى ما حكاه الخطيب عن أبي حنيفة من المسائل التي تتعلق بالإيمان، وأنه كان مرجئا وجهميا، قال الخطيب: قد سقنا عن الأئمة أخباراً كثيرة، تتضمن تقريظ أبي حنيفة والمدح له والثناء عليه، والمحفوظ عند نقلة الحديث عن الأئمة المتقدمين وهؤلاء المذكورين منهم في أبي حنيفة خلاف ذلك، وكلامهم فيه كثير لأمور شنيعة حفظت عليه، يتعلق بعضها بأصول الديانات، وبعضها بالفروع، نحن ذاكروها بمشيئة الله، ومعتذرون إلى من وقف عليها، وكره سماعها، بأن أبا حنيفة عندنا مع جلالة قدره أسوة غيره من العلماء الذين دونا ذكرهم في هذا الكتاب، وأوردنا أخبارهم، وحكينا أقوال الناس فيهم على تباينها.

وهنا قال المعظم: أما قول الخطيب هذا، فإنا إن شاء الله نبين أن قصده خلاف ما ذكر من المعذرة، وإنما قصد الشناعة، جرأة منه وافتراء. ونقل عن الخطيب ما حكى عن أبي حنيفة في الإيمان، إذ قال: أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسن أخو الخلال بإسناده إلى وكيع، قال: سمعت الثوري يقول: نحن المؤمنون، وأهل القبلة عندنا مؤمنون في الأنكحة والمواريث والصلاة والإقرار، ولنا ذنوب، ولا ندري ما حالنا عند الله. ثم قال: وقال أبو حنيفة: من قال بقول سفيان هذا فهو عندنا شاك. نحن المؤمنون هنا، وعند الله حقاً. قال وكيع: ونحن نقول بقول سفيان، وقول أبي حنيفة عندنا جرأة.

وهنا يعلق المعظم على ذلك فيقول: اعلم وفقك الله أن الإيمان هو التصديق، واعلم أنه لا يكون تصديقا بدون المعرفة، والمعرفة لا تكون مع الشك، إنما تكون مع اليقين، وإذا ثبت هذا فنحن المؤمنون هنا، وعند الله، لأن المعرفة لا تختلف، لأن من عرف هنا كان عارفا عند الله، لأن المعرفة ترفع الجهل؛

وأما قول أبي حنيفة عن سفيان في قوله : نحن المؤمنون ، وأهل القبلة عندنا مؤمنون محمول على قوله تعالى : « قالت الأعراب : آمنا . قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » . ألا تراه نفى الإيمان عمن أسلم إلا من عرف بقلبه ، فثبت ما قلت : إنه لا يكون إيمانا إلا بمعرفة .

وحينا ينكر أن يكون ما رواه الخطيب صحيح النسبة إلى أبي حنيفة ، كوقفه مما نقله الخطيب ، منسوبا إلى أبي حنيفة ، من أنه قال : لو أن رجلا عبد هذه النعل يتقرب بها إلى الله لم أر بذلك بأسا . وذكر الخطيب أن ذلك كفر صراح . فقد نفى أن يكون ذلك مما قاله أبو حنيفة ، « فهذا لم ينقله أحد من أصحاب أبي حنيفة . واعلم أن أصحاب الإنسان أعرف به من الأجنبي . ثم اعلم أن مذهب أبي حنيفة له أصول وقواعد وشروط لا يخرج عنها ، فأما أصول مذهبه رضي الله عنه ، فإنه يرى الأخذ بالقرآن والآثار ما وجد ، وقواعده ألا يفرق بين الخبرين أو الآى والخبر ، مهما أمكن الجمع بينهما ، إلا أن ثبت ناسخا أو منسوخا . وشروطه ألا يعدل عنهما ، إلا أن يجد فيهما شيئا ، فيعدل إلى أقوال الصحابة الملائمة للقرآن والسنة ، وإن اختلفوا تخير ما كان أقرب إلى الكتاب والسنة . فهذا عليه إجماع أصحاب أبي حنيفة ... واعلم أن أخبار الآحاد المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم توجب العمل ، لأجل الاحتياط في الدين ، ولا توجب العلم . وأخبار التواتر توجب العلم والعمل معا ، فكيف بك عن أخبار الخطيب هذه ، التي لا تكاد تنفك عن قائل يقول فيها . فإذا نازلنا الأمر ، وساوينا ، قلنا : أخباره أخبار آحاد ، وأخبار أصحاب أبي حنيفة متواترة ، والعمل بالمتواترة أولى . وقد ثبت مذهب أبي حنيفة وأصوله وقواعده ، فإذا ثبت أن هذه أصول أبي حنيفة ، فكيف يسوغ له أن يقول هذا . مع علمه بقوله تعالى : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فهذا لا يصح عن أبي حنيفة » .

وعلى هذا النسق جرى الملك المعظم ، فى الرّد على المسائل التى أثارها الخطيب ، يحط بها من قدر أبى حنيفة ، ويشكك فى قيمة مذهبه . ومن أغرب ما رواه عن بعضهم أنه قال : كنت آتى أبا حنيفة أسأله عن الشىء من أمر الغزو ، فسألته عن مسألة ، فأجاب ، فقلت له : إنه يروى فيها عن النبى صلى الله عليه وسلم كذا وكذا ؛ فقال : دعنا من هذا . قال : وسألته يوماً آخر عن مسألة ، فأجاب فيها ؛ فقلت له : إن هذا يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم فيه كذا وكذا ؛ فقال : حك هذا بذنب خنزير .

ولا يتردد المعظم فى عدم قبول هذه الرواية ، فيقول : هذا النقل يخالف مذهب أبى حنيفة . ثم إن الخطيب لم يعين المسألة التى ذكر الراوى أنه سأل أبا حنيفة عنها ، ولا الخبر الذى أورده الفزارى .

ووقف المؤلف طويلا عندما رواه الخطيب عن العلماء : من ذم رأى الإمام والتحذير منه ، فرد على ذلك مسألة مسألة .

ولم يقنع المعظم بما قام به من الرد على ما أورده الخطيب منتقصا به أبا حنيفة ، بل مضى إلى الرجال الذين روى الخطيب عنهم ما انتقص به أبا حنيفة ، فأورد من أحوالهم ما يبين به أنهم مجرحون فى رواياتهم ، لا يوثق بهم فيما يقولون أو يروون ، ومستشهداً فى تجريحهم بما أورده الخطيب نفسه فى كتابه : تاريخ بغداد ، ومن لم يذكرهم الخطيب ، مضى إلى كتب الجرح والتعديل ، يستقى منها أخبارهم التى لا تجعل روايتهم أهلا للثقة ولا الاطمئنان .

ولم يقتصر الملك المعظم على ذلك ، بل ذهب إلى الخطيب نفسه مؤلف الكتاب ، فبين ضعف حفظه ، وأنه كان مصحفاً ، يجمع فى كتبه الأحاديث التى يعلم أنها ليست صحيحة ، وروى عن بعض أهل المعرفة بالحديث قوله : ثلاثة

من الحفاظ لا أحبهم؛ لشدة تعصبهم، وقلة إنصافهم: الحاكم أبو عبد الله، وأبو نعيم الأصبهانى، وأبو بكر الخطيب.

قال المظم: وأما الخطيب فإنه زاد عليهما فى التعصب وسوء القصد . . . ولو ذهبنا نذكر أغلاطه وما تعصب به لطال. ومن تبلغ به العصبية إلى ما قد ذكرنا من تغطية الحق، والتلبيس على الخلق، لا ينبغى أن نقبل جرحه وتعديله؛ لأن فعله وقوله ينبيء عن قلة دين.

ولقد نقلت من خطه أشعاراً قالها، منها.

بات الحبيب، وكم له من ليلة فيها أقام إلى الصباح معانقى
ثم الصباح أتى، ففرق بيننا ولقلما يصفو سرور العاشق

ومنها . . .

ومن هذا حاله لا يصلح أن يكون بمنزلة الأئمة الذين تقبل أقوالهم فى الجرح والتعديل ورواياتهم.

وهكذا انتصر لأبى حنيفة، ولم يرض إلا بأن يهدم البناء من أساسه. والكتاب سهل الأسلوب، واضح العبارة، لا التواء فى تعبيره، ولا غموض فى أدائه، وهو يخلو من مقدمة للمؤلف تحدد هدفه، وتبين منهجه، ولكنه يدل على واسع علم المظم، وقدرته على المناقشة والجدل، وأخذه الموضوع من جميع أطرافه.

تشجيعه للعلم

ليس بعجيب أن يجد العلم فى كنف هذا العالم الملك ظلا ظليلا يأوى إليه، وأن يبسط الملك يده بتشجيع العلماء ومن يطلبون العلم، حتى وجد العلماء فى مملكته الرخاء والسلام، فأقبلوا عليها آمنين على رزقهم، وحياتهم، فازدهر العلم فى عهده، ونفقت سوقه فى أيامه، فقصده العلماء من الآفاق، فأكرمهم

وأغدق عليهم الرزق وأجرى عليهم المرتبات الوافرة ، وقربهم منه ، وصار يجالسهم ، ويستفيد منهم ، ويفيدهم ، ويناظرهم .

ولم يبسط المعظم حمايته على علم دون علم ، بل وجد فى جميع ألوان العلوم وسيلة للنهوض العقلى لشعبه ، وكان من بين إخوته ، المحبّ للفلسفة والمشجع على دراستها ، والحامى لدارسيها ، فإذا كانت الفلسفة قد ضعفت دراستها فى عهد صلاح الدين فقد عادت إليها الروح عند ما صعد المعظم على عرش دمشق ، فاشتهر الاشتغال بعلوم الأوائل فى دولته ، وأمن المشتغلون بها على أرواحهم ، بل وجدوا عنده التقريب والتشجيع .

ويحفظ التاريخ من أسماء هؤلاء العلماء سيف الدين الآمدى ، الذى أحكم دراسة أصول الفقه ، وأصول الدين ، وبرع فى الخلاف ، والجدل ، والمنطق ، والفلسفة ، وساعده على النبوغ فى ذلك ذكاء يفرط بعض الناس فى تقديره ، حتى قالوا : إنه أذكى أهل زمانه ، ولكن الحياة لم تطب له فى مصر ، فقد تعصب عليه طائفة من الفقهاء ، نسبوه إلى فساد العقيدة ، ومذهب الفلاسفة ، وكتبوا محضراً يتضمن ذلك ، وحرروا فيه ما يستباح به الدم ، فخرج الآمدى من مصر إلى الشام خائفاً يترقب ، ومضى إلى حماة ، ثم استدعاه المعظم إلى دمشق ، فجاء إليه ، وتولى التدريس بالعزيزية ، إحدى مدارس دمشق ، وأغدق عليه الملك المعظم نعمه ، وقربه منه تقريباً وثيقاً .

ومنهم شمس الدين الخوىّ الذى نبغ فى العلوم الحكمية والشرعية ، فإنه عندما ورد إلى الشام استحضره المعظم عيسى ، وسمع أحاديثه ، وأعجب به ، وأطلق له مرتباً دارا ، وجعله من بطانته ، ثم ولاه قضاء القضاة فى دمشق .

ومن العلماء الذين نالوا تشجيعه كذلك سبط ابن الجوزى ، صاحب كتاب التاريخ المسمى : (مرآة الزمان) ، وهو من أجل الكتب فى مادته . وشهر السبط بالوعظ ، وكان له فيه لسان رطب ، ولكلامه تأثير فى القلوب ، ولوعظه قبول لدى الخاصة

والعامة ، وقد نال سعادة ووجاهة لدى الملك المعظم ، وصار عنده بالمنزلة العظمى ، فكان يحضر مجالسه بجامع دمشق وبالقدس ، ويبكر إلى جامع دمشق فيقعد عند المنبر بين العامة .

وقد جذب تشجيعه عالماً أديباً من كبار علماء عصره ، وترك هذا التشجيع أثراً خالداً ، ضم به إلى أدب العربيـة ، تراثاً نافعاً باقياً ، ذلك هو قوام الدين الفتح بن عليّ بن محمد البنداري الذي نشأ في أصفهان ، وتربى بها ، ثم قدم إلى الشام ، ولحق بالملك المعظم ، وأهدى إليه كتاب الشاهنامه ، وهي نظم بالفارسية كتبها الشاعر الفارسي المشهور أبو القاسم الفردوسي ، وأودعها معظم ما وعى الفرس من أساطيرهم وتاريخهم ، من أقدم عهودهم حتى الفتح الإسلامي ، ورتبها ترتيباً تاريخياً ، تذكر الأسرة فتبدأ بأول ملوكها ، تبين تاريخه ، وما كان في عهده من الحادثات ، ثم تذكر الملك الثاني ، وهلم جراً .

أراد المعظم عيسى أن ينتفع بما في الكتاب ، وأن ينفع به قـرّاء العربية ، فطلب إلى أبي الفتح البنداري أن يترجمه إلى العربية ، فصدع بالأمر ، وظل أكثر من عام (من جمادى الأولى سنة ٦٢٠ هـ إلى شوال سنة ٦٢١) يعاني أمر ترجمة الكتاب ، حتى أتمه ، وسجل المترجم في مقدمته تبجيله الملك المعظم ، وما لقيه منه من تشجيع ، إذ قال : « ثم إنا نحمد الله الذي شيد مباني الشريعة ، ومهد قواعد الإسلام ، بمكان مولانا السلطان الملك المعظم ، شرف الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، ملك الملوك والسلاطين ، أبي الفتح عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، حين ذلل له نواصي العباد ، وملكه سرر العالم وصفوة البلاد ، وقضى لأوليائه بالعز الأقعس ، والطرف الأشوس ، وحكم لأعدائه بالذل اللازم ، والمعطس الراغم ، وأيد عزائمه بأمداد الفتح المبين ، وشيع ألويته . بجنود النصر والتمكين ، فهو بأمر الله قائم ، آناء الليل وأطراف النهار . . . هذا مع ما خصه

الله به من الفضائل الباهرة ، والعلوم الزاهرة ، التي تبحر في فنونها وأنواعها ، وتملك أعنتها رافعاً منارها ، كالنار على يفاعها ، فهو ابن جلاها ، وطلاع ثناياها ، والمستبد من أقسامها بمرباعها وصفاياها ، حتى صارت أيامه مواسم تجلب إليها بضائع العلوم والآداب ، من كل مرمى سحيق ، وتضرب إليه أكباد المطى ، من كل فج عميق .

ولما جذبت السعادة بضبعي ، وطمحت بطرفي ، ووطئت بساط مملكته الفسيحة ، . . قدمت برسم الخدمة لخزانة آدابه ، لا زالت معمورة ببقائه ، الكتاب الموسوم بشاه نامه ، الذي عنى بنظمه الأمير الحكيم أبو القاسم منصور ابن الحسن الفردوسي الطوسي ، مطرزاً ديباجته بذكر السلطان السعيد أبي القاسم محمود بن سبكتكين رضي الله عنه ، ذاكراً فيه ملوك الفرس ، وتواريخ أيامهم ، وشارحاً فيه مقاماتهم المأثورة ، ووقائعهم المشهورة ، مع وصف سيرهم الحميدة ، وخلالهم السديدة ، في إفاضة العدل والإحسان ، وإشاعة الأمن والأمان ، وصرف العناية إلى عمارة العالم ، وإسباغ ظلال الرأفة والرحمة على كافة الأنام ؛ فوقع من همته العالية موقع القبول . لكنه رأى الكتاب مع ما تضمنه أطباقه من عجائب تصاريف الأدوار ، وبدائع تأثيرات الأطوار ، والحكم التي تتفتح بها عيون البصائر ، والعبر التي تتقوى بها أعضاء التجارب : قد استبدت العجم بفوائده ، وتوشحوا بقلائده ، وتخصصوا باستماع حكاياته وأقاصيصه ، واستأثروا بالاستمتاع بحكمه وأعاجيبه ، فاشرأبت همته الجوالة في سماء المكارم ، وعزمته الوقادة في انتهاز فرص المآثر ، إلى أن تعم فوائده ، وتكثر منافعه وعوائده ؛ فأمر مملوكه وصنيعته : الفتح بن علي بن محمد بن الفتح البنداري الأصبهاني أن يترجمه ، فيحل حكاياته المنظومة ، وينزع عن معاطفها أطمار اللغات العجمية ، ويفيض عليها فضفاض وشائع الألفاظ العربية ، ويكسوها رونق اللسان الذي هو أشرف

الألسن، المنزل به أفضل الكتب، والمتناطق به خير البشر، وخلصان الأمم ... فتصدى المملوك لما ندب له، امتثالا للأوامر العالية، ترتعد فرائص بيانه وبنانه، وترجف أحشاء يراعه ولسانه، لأن هذه الحضرة — لا زالت بسطة جلالها محمية من الانقباض، ومعاقد دولتها محروسة عن يد الانتقاض — مجتمع قروم البراعة، ومعرس فحول الصناعة، الذين إذا هدرت شقاشق أقلامهم، وجاشت بحار خواطرهم وأفهامهم، تلفت إلى غررهم اللائحة، وحجولهم الواضحة، من يتضخ لكنة عجمية، تنبو عنها الطباع، وتمجها الأسماع، وكيف يستطيع ابن اللبون صولة البزل القناعيس، وأنى يبغم الخشف الغرير، عند زئير الأسد وسط الخيس؟ لكنه أمل من أنوار السعادة السلطانية، التي إذا التفتت بعين العناية إلى الحباءة الخافية، كستها بنور الشمس البازغة، وتوقع من المواطف الشاملة، التي إذا اشتملت على القذاة الخاسئة، أطالت باعها على مناكب الجبال الشامخة — أن يكسو معاطف هذه الترجمة خلع الارتضاء، وينوه بذكرها بحسن الإصغاء، ويود صفحات صحائفها بأنوار القبول والإقبال، ويمديها شرف الكمال وبهاء الجلال؛ فلذلك ما أقدم المملوك على نقل الكتاب ... ».

وهذه المقدمة فضلا عن اعترافها بما للمعظم من فضل في الحث على ترجمة الكتاب — تشير إلى هذه الحاشية المثقفة التي أحاط المعظم بها نفسه، والتي دفعت مترجم الكتاب إلى أن يبذل جهده في الترجمة وإتقانها.

وكان المعظم، زيداً على ذلك، يريد أن يذلل سبيل العلم لطالبيه، وأن يجمع ما تفرق في الكتب في كتاب واحد، ينسقه مؤلفه وينظمه، تجنباً لتكرير المسألة الواحدة في كتب عدة، وجمعاً للمسائل المتعددة ذات الموضوع المتحد في نسق واحد من الكتاب. وقد رأينا فيما مضى كيف أمر العلماء أن يجردوا له مذهب أبي حنيفة وحده في كتاب. ويروى مؤرخوه أنه طلب إلى العلماء أن يجمعوا له

كتاباً كبيراً جامعاً فى اللغة ، يشمل ما فى كتاب الصحاح للجوهرى ويضاف إليه ما فات الصحاح من التهذيب للأزهرى ، والجمهرة لابن دريد ، وغيرهما . ولست أدرى أحقق العلماء له فكرته ، أم حال موته المبكر دون تحقيقها ، وإن كان ابن مكرم قد حققها بعد ذلك فى كتابه : لسان العرب ، ولست أدرى مدى انتفاع ابن مكرم بفكرة المعظم عيسى .

وطلب المعظم إلى العلماء أيضاً أن يرتبوا له مسند أحمد بن حنبل على الأبواب ، ويردوا كل حديث إلى الباب الذى يقتضيه ، فتجمع أحاديث الطهارة فى باب واحد ، وكذلك يفعل فى الصلاة وغيرها من الرقائق والتفسير والغزوات . فيكون كتابا جامعاً .

وفكرة المعظم فى هذا الجمع والترتيب فكرة سديدة ، فى اللغة بجمع المعانى المتعددة للكلمة الواحدة ، بعد أن كانت متناثرة فى كتب عدة ، وفى ذلك تيسير للكشف أمام الباحث ، ومحاولة لجمع كلمات اللغة ومعانى هذه الكلمات ، وفى ترتيب كتب الحديث على هذا النسق وضع للأحاديث التى تتعلق بالموضوع الواحد ، تحت أنظار الباحث دفعة واحدة ، ليكون فهمه المسألة التى يريد بحثها أشمل ، ودراسته لها أكمل وأعمق . وفى ذلك تمهيد السبيل أمام الباحث ، وتيسير الدرس له بجمع المواد التى يستطيع الاستنباط منها ، وإجراء بحوثه عليها .

ولرغبته القوية فى نشر العلم بين أبناء شعبه رصد جوائز المتفوقين فيه ، وأعجب بكتب رآها جامعة لمادتها ، فأجاز من يحفظها ، فكانت جائزة من يحفظ الجامع الكبير مائتى دينار ، ومن يحفظ الإيضاح فى النحو مائتى دينار ، ومن يحفظ المفصل للزمخشرى فى النحو أيضاً مائة دينار وخلعة ، وحفظ هذه الكتب جماعة وفى لهم المعظم بما شرطه على نفسه .

وهذا ولا ريب نهج صالح ، وطريقة مثلى ، يدفع بها الملوك الصالحون أبناء

شعبهم على دراسة العلم والاستزادة من المعارف ، ولا تزال تتبع هذا النهج إلى اليوم تشجيعاً على التفوق والامتياز .

مدارسه

ساهم المعظم عيسى مساهمة فعّالة فى نشر العلم ، بإنشاء المدارس المختلفة ، تيسيراً للراغبين فى أخذ العلم . فما أنشأه من المدارس أو أكمل إنشاءه :

١ — المدرسة العادلية ، نسبها لوالده الذى دفن فيها سنة ٦١٩ هـ ، وكانت أعظم مدارس الشافعية بدمشق ، بدأ نور الدين بإنشائها ، ومات قبل أن يتمها ، فحاول العادل إتمامها ، ولكنه مات قبل ذلك ، فأتمها المعظم ، وجعلها للشافعية وهو مذهب أبيه ، ووقف عليها أوقافاً دارّة تحفظ حياتها ، ولا يزال التاريخ يحفظ حفل افتتاحها ، فقد ألقى فيها الدرس يومئذ قاضى القضاة جمال الدين المصرى حيث عقد فى إيوان المدرسة ، وحضر الدرس أعيان الشيوخ والقضاة والفقهاء ، وحضر المعظم عيسى هذا الحفل ، وجلس إلى يمينه شيخ الحنفية : جمال الدين الحصيري ، ويليه شيخ الشافعية فخر الدين بن عساكر ، فالقاضى محيى الدين بن الشيرازى ، فالقاضى محيى الدين بن يحيى الزكى ، وجلس عن يسار السلطان إلى جانبه مدرس المدرسة ، فسيف الدين الآمدى ، فالقاضى شمس الدين بن سنى الدولة ، فقاضى العسكر ، وجلس قبالة السلطان تقى الدين بن الصلاح ، ودارت حلقة كان فيها أعيان المدرسين والفقهاء ، وشرع الجماعة يتناقشون ، وقد أخذ المعظم بنصيبه من النقاش ، وتكلم فى الدرس مع الجماعة .

وكان المعظم يحضر مع الفقهاء دروس كبار العلماء ، فمنذ ما فوض تدريس المدرسة النورية الحنفية إلى الشيخ جمال الدين الحصيرى حضر المعظم درسه فى ثالث ربيع الأول سنة ٦١١ هـ .

وإننا اليوم لنصور لأنفسنا هذا الحفل الجليل، يضم أعظم علماء دمشق ، وقد جلس بينهم مليكهم، كأنه فرد منهم ، يأخذ عنهم ، ويأخذون عنه ، وإن العلم ليملأ جوانح هؤلاء العلماء شعوراً بالعزة والكرامة .

ولم يقتصر الحفل على أعيان العلماء فحسب ، بل اتصل بهذه الحلقة جمهور الناس ، حتى ملئوا الإيوان .

ونالت هذه المدرسة مكانة سامية منذ إنشائها ، فدرس فيها كبار العلماء ، وظلت محتفظة بمكانتها بعد وفاة المعظم ، ففيها عمل ابن خلكان تاريخه المشهور : وفيات الأعيان ، ودرس بها ابن مالك صاحب الألفية ، ونزل فيها ابن خلدون في أوائل المائة التاسعة .

٢ — وأنشأ المعظم إلى جانب هذه المدرسة الشافعية مدرسة للأحناف سنة ٦٢١ هـ ، عرف من بين الكتب التى كانت تدرس فيها يومئذ كتاب الهداية فى فقه الحنفية ، وكتاب كافية ابن الحاجب فى النحو .

٣ — ولم ينشئ المعظم عيسى المدارس فى دمشق فحسب ، بل أنشأ فى القدس مدرسة سنة ٦٠٤ هـ ، عنى فيها بأن تكون المادة الأساسية التى تدرس بها علم النحو ، وأن يكون الكتاب الذى يدرس فيها كتاب سيبويه . وكان المعظم من المولعين بالفقه والنحو ، كما سبق أن ذكرنا .

٤ — وفى بيت المقدس أيضا ، وعلى برج باب الرحمة فيه ، كانت مدرسة تعرف بالنصرية ، نسبة لأحد رجالها : الشيخ نصر المقدسى ، ثم عرفت بالغزالية ، نسبة لأبى حامد الغزالى ، الذى اعتكف فيها ، ويقال : إنه أتم فيها تأليف كتابه : إحياء العلوم ؛ ويظهر أن التخريب قد نال هذه المدرسة ، فأعاد إنشاءها المعظم عيسى سنة ٦١٠ هـ ، ويبدو أنها كانت صغيرة ، فجعلها زاوية لقراءة القرآن ،

والاشتغال بالنحو، وجعل بها خزانة كتب وقفها عليها، ليسهل لطلبتها الرجوع إلى كتب درسهم .

٥ — وبنى قبة بالمسجد الأقصى ، وقف عليها وقفاً جليلا ، على أن يدرس في تلك القبة الفقه والقراءات السبع ، وشرط ألا يصرف من وقفها شيء لغير الحنفية ، وولى تدريسها أحد تلامذة أستاذه : تاج الدين الكندى ، وهو شمس الدين بن رزين الذى كان حافظا للقراءات العشر وطرقها .

وقد اقتدى به فى إنشاء المدارس زوجه وابنته ، فأنشأت الأولى ، وكانت تدعى عزيزة الدين خاتون ، مدرسة بدمشق للحنفية ، وأنشأت الثانية مدرسة للحنفية ، بدمشق أيضا .

* * *

نحن إذاً أمام ملك عالم شغف بالبحث والقراءة ، لا يدعهما حتى فى أحرج الأوقات التى مرت به فى الحياة ، وساهم مساهمة فعالة فى الإنتاج العلمى ، فألف كتابا بقى حيا إلى اليوم ، ودل على اطلاع واسع ، وثقافة متنوعة ، وألف له حاشية من كبار علماء عصره ، اتخذهم جلساءه وندماءه ، يباحثهم ، ويناقشهم ، ويأخذ عنهم ، ويأخذون عنه ، وكان يجد لذة وشرفا أن يأخذ كتابه بيمينه ، ويمضى إلى حلقة أستاذه ماشيا ، ويجلس بين يدى المدرس ، مع الطلبة ، لا يميزه عنهم إمارة ولا ملك .

بسط حمايته على العلماء ، فأقبلوا عليه من كل حدب ، ووجدوا فى ظله حياة وادعة وارفة ، سعدوا فيها بعطاء غزير دار . وقد رسم لهم بعض مناهج التأليف ليذلل سبل العلم لراغبيه ، ولييسر السبيل أمام الباحثين ، وعمل على نشر العلم بكل ما فى يده من الوسائل ، فأثاب الطلبة المجدين ، وكافأهم على جدهم بالمال ، وأنشأ المدارس وشجع على إنشائها ، وشارك فى افتتاحها ، مساهما فى نشاطها .

حياته السياسية

عاش المعظم جل حياته بالشام ، وكان والده يعدّه ليكون حاكما على إحدى ولايات الإمبراطورية الأيوبية الواسعة ، في كنف عمه صلاح الدين وأبناء عمه ، فما كاد يقارب الخامسة عشرة حتى أوحى إليه والده العادل — وقد مات صلاح الدين ، وقام بعده ولده العزيز — أن يدخل على العزيز ، ويقبل يده ، ويطلب منه دمشق ، فدفعها إليه العزيز ، وأعطاه مستحقه ، فتدرب منذ الصغر على الولاية والحكم ، فلما حدث الخلاف بين أبناء صلاح الدين ، وذهبت ريحهم ، آل إرث الامبراطورية الصلاحية إلى الملك السياسي الداهية : العادل أبي بكر بن أيوب ، فعزم على أن يمرن بنيه تمرينا عمليا على الحكم ، وأن يكون هو لهم بمثابة القائد المدرب المرشد ، فقسم البلاد بين أبنائه ، فجعل الشرق لابنه الأشرف موسى ، والشام لابنه المعظم عيسى ، ومصر لابنه الكامل محمد ، وربما يكون قد أراد بهذا التقسيم أن يجعل كلا من أولاده ، مستقراً في ولايته لا يطمع في ملك أخيه ، قانعا بما تحت يده ، حتى لا تتكرر مأساة أبناء أخيه ، وكانت استنابة العادل لابنه في دمشق سنة ٥٩٧ هـ ، (١٢٠٠ م) ، وظل نائبا عن أبيه في دمشق حتى مات العادل سنة ٦١٥ هـ (١٢١٦ م) ، وأبوه في هذه المدة الطويلة يرقب منهجه في الحكم ، ويقيمه مقامه في قيادة الجيوش ، وإذا أراد إصلاح خطأ وقع فيه ، قوّمه بأفضل الطرق وألينها . فعندما نزلت الفرنج على دمياط سنة ٦١٥هـ ، بعث العادل بالعساكر التي كانت معه إلى ولده الكامل بمصر ، وأقام المعظم بالساحل ، ومعه عسكر الشام ، ليكون في مقابلة الفرنج ، حتى يشغلهم عن دمياط .

ولما بنى على الطور ، وهو جبل يطل على طبرية الأردن ، قلعة حصينة ، وأنفق عليها أموالا ضخمة ، لم يرق العادل إقامتها ، ورأى فيها خطراً على البلاد ،

فقال لابنه : قد بنيت هذا الطرد ، وهو يكون سبباً لخراب الشام ، وقد سلّم الله من كان فيه من أبطال المسلمين ، وسلاح الدنيا والذخائر ، وأرى من المصلحة خرابه ؛ ليتوفر من فيه من أبطال المسلمين والمدد على حفظ دمياط ، وأنا أعوضك عنه . ولكن عز على المعظم أن يخرب هـذا الحصن ، وعتب فى نفسه على أبيه ، وظل أياماً لا يدخل إليـه ، فبعث إليه أبوه العادل ثانياً ، وأرضاه بالمال ، فرضى المعظم ، ونقل من الحصن ما كان فيه ، وأمر بتخريب القلعة ، عند ما رأى الفرنج خارجين يريدون بيت المقدس .

فلما مات أبوه استقل بحكم البلاد ، وكانت مملكته تقع بين حمص وعريش مصر . يدخل فى ذلك بلاد الساحل الإسلامية منها ، وبلاد الغور ، وفلسطين ، والقدس ، والـكرك ، والشوبك ، وصرخد ، وغير ذلك . وكوّن لنفسه جنداً ، عنى بزيهم وتدريبهم ، ورأى أن القليل مع التدريب ، أفضل من كثير لا ينالون حظهم من العناية وحسن التعليم ، فلم يزد جنده على أربعة آلاف فارس .

وظل المعظم محافظاً على الصلات الطيبة التى تربطه ببغداد ، وكان يرى فيها الأم الروحية ، التى لا يليق نزاعها ولا قتالها ، وإن كان يرى أنها لا تساعد أحداً ولا تنجده ، كما سنرى فى سير الحوادث . وكانت بغداد تحب أن تبقى على صلتها بملوك بنى أيوب ، فـكانت ترسل إليهم الخلع بين حين وآخر ، والملوك يستقبلون هذه الخلع ، ويلبسونها فى ابتهاج وإجلال . ولعلهم يرون فى ذلك تثبيتا لقوائم عروشهم فى قلوب رعاياهم الذين ورثوا إجلال الخليفة وتعظيمه .

أما صلته بأخويه فقد تداولها الصفاء والـكدر ، فحينا نلمس الحب يتجـلى فى تصرفاته مع أخيه الـكامل ، مصحوبا بالإجلال . روى أنه رغب فى لقاء أخيه ، فترك دمشق إلى الإسكندرية ، حتى وصل إليها فى ثمانية أيام ، فخرج الـكامل إليه والتقاه ، فترجلا واعتنقا ، وركب الـكامل ، وبقى المعظم واقفا ، فقال له الـكامل

باسم الله ، اركب ؛ فأشار إلى الفرس الذى كان تحته وأنشد :

وإذا المطىُّ بنا بلغن محمدا ... فظهورهن على الرجال حرام

فأطرب ذلك الكامل وسرَّه .

كما ذكر مؤرخوه أيضا أنه كان يخطب للكامل على منابر بلاده ، وكأنه بذلك يعترف لأخيه الأكبر بالزعامة على الأسرة كلها ، فلم يكن فى غالب الأوقات يذكر اسمه على المنابر مع اسم أخيه .

وكان للمعظم فضل كبير ، فى إنقاذ العرش لأخيه الكامل ، ذلك أنه « لما وصل الفرنج إلى دمياط ، كان الملك الكامل فى مبدأ استقلاله بالسلطنة ، وكان عنده جماعة كثيرة من أكابر الأمراء ، منهم عماد الدين أحمد بن المشطوب ، فاتفقوا مع أخيه الملك الفائز إبراهيم بن الملك العادل ، وانضموا إليه ، فظهر للملك الكامل منهم أمور تدل على أنهم عازمون على تفويض الملك إليه ، وخلع الكامل ، واشتهر ذلك بين الناس ، وكان الملك الكامل يداريهم لكونه فى قبالة العدو ، ولا يمكنه المناظرة والمنافرة ، ولم يزل على ذلك حتى وصل إليه أخوه الملك المعظم عيسى ، يوم الخميس تاسع عشر ذى القعدة من سنة خمس عشرة وستمائة ، فأطلعه الكامل فى الباطن على صورة الحال ، وأن زعيم هذه الطائفة ابن المشطوب ، فجاءه يوماً على غفلة فى خيمته ، واستدعاه ، فخرج إليه ، فقال له : أريد أن أتحدث معك سراً فى خلوة ؛ فركب ابن المشطوب فرسه ، وسار معه ، وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويثق بهم ، وقال لهم اتبعونا . ولم يزل المعظم يشغله بالحديث ، ويخرج معه من شىء إلى شىء ، حتى أبعده عن المخيم ، ثم قال له : يا عماد الدين ، هذه البلاد لك ، ونشتهى أن تهبها لنا . ثم أعطاه شيئا من النفقة ، وقال لأولئك المجردين : تسلموه ، حتى تخرجوه من الرمل ، فلم يسعه إلا الامتثال ، لانفراده ، وعدم القدرة على الممانعة فى تلك الحال ، ثم عاد المعظم إلى أخيه الملك الكامل ،

وعرّفه صورة ما جرى ، ثم جهز أخاه الملك الفائز المذكور إلى الموصل ، لإحضار النجدة منها ، ومن بلاد الشرق ، فمات بسنجار ، وكان ذلك خديعة ؛ لإخراجه من البلاد ، فلما خرج هذان الشخصان من المعسكر ، تحللت عزائم من بقى من الأمراء الموافقين لهما ، ودخلوا فى طاعة الملك الكامل .

وهكذا استطاع أن ينقذ العرش لأخيه الكامل ، من مؤامرة كادت تودى به ، كما كان له أثر فعال فى إنقاذ العرش ، بل إنقاذ مصر والعالم الإسلامى بموقفه فى معركة دمياط ، سنتبينه فيما يلى .

ولست أدرى الأسباب التى بعثت الجفوة بين الإخوة ، برغم أن العادل ، بتقسيمه الإمبراطورية فيما بينهم ، كان يبغى أن يؤسس صلة بعضهم ببعض على المودة والحب ، وقد أثمر ذلك وحدتهم أمام دمياط فانتصروا ، ولكنى أرجح أن سبب ذلك يعود إلى طمع كل فيما فى يد صاحبه ، ولعل الكامل صاحب مصر كان يبغى أن يبسط سلطانه الفعلى على الشام ، وأن يأخذه من أخيه المعظم ، ويدلنا على ذلك أن الكامل لم يلبث بعد وفاة أخيه أن تحرك إلى الشام وأخذه من ابن المعظم : الناصر داود ، وربما كان الكامل يرى نفسه الوارث الشرعى لإمبراطورية العادل كلها ، وكان المعظم يحذر أخاه أن تمتد أطماعه إلى أن يتحرك ، فيأخذ ما تحت يد المعظم ، ويكتب إليه متهدداً إذا أنكر منه حالته : لئن لم تنته لآخذنك بن معك . ويقول ابن واصل مؤرخ الأيوبيين : إن الكامل لم يستطع أن يهاجم الشام إلا بعد وفاة المعظم ، وكان يظن أنه إن خرج إلى الشام انحاز عسكره أو معظمهم إلى المعظم ، وحيل بينه وبين الديار المصرية ، لما كان يتوهمه من ميل عسكر مصر إليه ، ومحبتهم له ، علمـــاً منهم بقيامه بأمر الجند ، وعنايته بهم .

ومما يرجح أن سبب النزاع يعود إلى الطمع ما يرويه التاريخ من أن الملك

أضسيس بن الملك الكامل قدم من اليمن عازماً أن يأخذ الشام من عمه المعظم عيسى سنة ٦١١ هـ .

كما كان المعظم عيسى يضم إليه بعض مملكة أخيه الأشرف حيناً ، ويحاصر بعض بلاده حيناً آخر . ولعله كان يفعل ذلك انتقاماً من الأشرف الذى كان يؤيد الكامل ، وعلى صلة وثق به . وهكذا استتب الخلاف بين الإخوة ، وكان له أثر سيء فى التاريخ ؛ فقد غدا المعظم يستعين بالأجانب وأعداء الخلافة العباسية على أخويه ، ويساعد من يخرج على طاعتهما : روى المؤرخون أن الأشرف مضى إلى مصر ، فاستناب على مملكته أخاه شهاب الدين غازيا ، فسولت له نفسه العصيان ، وانتهز المعظم هذه الفرصة ، فزين له عمله ، وكاتبه وأعانه ، وإن لم يثمر هذا العصيان ، بل استطاع الأشرف أن يسترد مملكته بعد عودته من مصر .

ويظهر أن المعظم قد اقتنع بتدبير أخويه ضده ، فمضى يطلب الحليف عليهما ، فوجده فى السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه حاكم أذربيجان ، الذى أراد أن يملك بغداد ، وأن يأخذها من الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، فراسله المعظم عيسى ، ليمينه على قتال أخيه الأشرف ، ولم ترق هذه المحالفة فى عين بغداد ، فأرسلت رسولا من قبلها ، بخلعة إلى الملك المعظم وإخوته ، يحمل رسالة إلى المعظم ، تطلب منه أن ينصرف عن موالاة جلال الدين ، ويروى سبط ابن الجوزى ما دار بين المعظم والرسول ، وكان خال سبط ابن الجوزى قال : قال لى الملك المعظم : قال خالك : المصلحة رجوعك عن هذا الخارجى ، (يعنى جلال الدين الخوارزمى) وترجع إلى إخوتك ، ونصلح بينكم ، قال : فقلت لخالك : إذا رجعت عن ابن الخوارزمى ، وقصدنى إخوتى تنجدوننى ؟ قال نعم ؛ فقلت : ما لكم عادة تنجدون أحداً ! هذه كتب الخليفة الناصر لدين الله عندنا ، ونحن على دمياط ، نكتب ونستصرخ به ، فيجيء الجواب بأنا قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة ولم يفعلوا .

قال : قلت : مثلى معكم كمثل رجل كان يخرج إلى الصلاة ، وبيده عكاز ؛ خوفاً من الكلاب ، فقال له بعض أصدقائه : أنت شيخ كبير ، وهذا العكاز يثقلك ، وأنا أدلك على شيء يغنيك عن حمله ؛ قال : وما هو ؟ قال : تقرأ سورة يس ، عند خروجك من الدار ، وما يقربك كلب . وأقام مدة ، فرأى الشيخ حامل العكاز ، فقال له : أما قد علمتك ما يغنيك عن حمله ؟ فقال : هذا العكاز لكلب لا يعرف القرآن . وقد اتفق إخوتى علىّ ، وقد أنزلت ابن الخوارزمى على خلاط ، إن قصدنى أخى الأشرف منعه ، وإن قصدنى أخى الكامل ، فأنا له .

والقصة واضحة الدلالة على ما وصل إليه الخلاف بين الإخوة ، وعلى مدى ما وصلت إليه الخلافة العباسية يومئذ : من عجزها عن أن تمد يد العون إلى أنصارها.

ورغم ذلك الضعف فى الخلافة العباسية ، والتحالف بين المعظم والخوارزمى ، لم يرض المعظم أن يمين حليفه على الخليفة ، قال المعظم عيسى : كتب إلى جلال الدين يقول : تحضر أنت ومن عاهدنى ، فنتفق ، حتى نقصد الخليفة ، فإنه كان السبب فى هلاك المسلمين ، وفى مجىء الكفار إلى البلاد . قال المعظم : فكتبت إليه : أنا معك على كل أحد ، إلا على الخليفة ، فإنه إمام المسلمين .

وقد رأى الأشرف أن لا قبل له بلقاء الخوارزمى ؛ فقدم إلى دمشق ، وأطاع المعظم ، وسأله أن يسأل الخوارزمى الرحيل عن خلاط ، وخفض له جناح تواضعه ، قائلا له : نحن مماليكك ، وما أنبت الشعر على رءوسنا إلا أنت ، فبعث المعظم إلى الخوارزمى ، فرحل عن خلاط ، بعد أن أقام عليها أربعين يوما .

وأما الكامل فقد خاف من انتماء المعظم إلى الخوارزمى ، ومن مبالغته فى هذا الانتماء ، حتى لقد وعده أن يخطب له ، ويضرب السكة باسمه ، فأرسل إليه الخوارزمى خلعة لبسها ، وشق بها دمشق ، وقطع الخطبة للملك الكامل ، الذى عزم على حرب أخيه ، وخرج بعساكره من القاهرة ، ولكنه لم يلبث أن عاد .

ويقال : إن المعظم أرسل إليه رسالتين : إحداهما سرية ، يقول فيها : إني نذرت لله تعالى أن كل مرحلة ترحلها لقصدي ، أتصدق بألف دينار ؛ فإن جميع عسكرك معي ، وكتبهم عندي ، وأنا آخذك بعسكرك . أما الرسالة التي كتبها ليقرأها الكامل علانية ففيها : إني مملوكك ، وما خرجت عن محبتك وطاعتك ، وحاشاك أن تخرج وتقابلني ، وأنا أول من أنجدك ، وحضر إلى خدمتك ، من جميع ملوك الشام والشرق . فأظهر الكامل هذا بين الأمراء ، وعاد إلى القاهرة ، وقبض على عدة من الأمراء ، متهما إياهم بمكاتبة المعظم .

ولعل المعظم كان يريد أن يتجنب الحرب مع أخيه بكل وسيلة ، فكتب إليه هذه الرسالة الظاهرة ليتخذها الكامل — إذا أراد — ذريعة للمودة والكف عن القتال ، وفي الوقت نفسه يهدده ويتوعده في رسالة سرية .

وكان لهـــذا النزاع أسوأ الأثر ، فقد استغله أعظم استغلال الإمبراطور فردريك الثاني ، واستطاع أن يحصل من الكامل بعد أن تفتتت هذه الوحدة بين الأيوبيين ، تلك الوحدة التي تحطم على صخرتها جموع الصليبيين ، فارتدوا على أعقابهم ، تاركين دمياط منهزمين شر هزيمة . استطاع أن يحصل على معاهدة ، استعظم المسلمون أمر إبرامها ، ووجدوا لها من الألم والوهن ما لا يمكن وصفه ، وبمقتضاها نزل الكامل عن بيت المقدس للفرنج ، وتكون القرى التي بين عكا ويافا ، وبين لد والقدس بأيدي الفرنج ، وهكذا أضاع النزاع والطمع كل ما استطاع صلاح الدين أن يسترده من أيدي الصليبيين ، وبذل في سبيل استرداده الكثير من الجهود والدماء ، واحتاج الأمر إلى أن يبذل المسلمون جهوداً جديدة شاقة مضنية ، يسترجعون بها ما كان في أيديهم ففرطوا فيه ، واستطاع الإمبراطور أن ينفذ المعاهدة ، وساعده على تسلم بيت المقدس أن المعظم كان قد مات . قال المؤرخون : لو أن المعظم كان حيا ما استطاع الفرنج أن يتسلموا بيت المقدس ، كما

أنه على يد ابنه : الناصر داود استرد بيت المقدس ، وعاد إلى حظيرة الإسلام .

من الملوم فى هذه النكبة التى حلت بالمسلمين يومئذ ؟

لا أستطيع أن أخلى من اللوم واحداً من الإخوه الذين سمحوا للمطامع أن تفرق كلمتهم ، وتفتت قوتهم ، وتوهن من جهودهم ، وإن كان حظ الكامل من اللوم أكثر من حظ أخويه ، فهو كبيرهم ،وكان هو مصدرالطمع على ما يظهر ، وكان يريد أن يسيطر سيطرة فعلية على الشام ، ولم يلبث المعظم أن مات حتى بدأ الكامل يحقق سياسته .

علاقتـــه بالفرنج

لم يكن فرنج سوريا بعد وفاة صلاح الدين فى حالة تسمح لهم بشن حرب صليبية ، فإن حاكم المدن الساحلية التى تركت للفرنج بمقتضى صلح الرملة،والملقب بملك المقدس ـ كان من الضعف بحيث لا يستطيع المغامرة فى مخاطرة جديدة ، وكان قانعاً بأن يحكم مدنه ، ويراعى شروط الهدنة التى جددها العزيز عند صعوده على عرش مصر ، وكان أمير أنطاكية وطرابلس مشغولا شغلا دائماً بحفظ إمارته من جاره حاكم أرمينية .

ولكن البابا سيلستين الثالث لما علم بوفاة صلاح الدين ، وانقسام إمبراطوريته بين أسرته ، واستقلال كل منهم بنفسه ، أراد انتهاز تلك الفرصة ، ودعا إلى حرب صليبية جديدة ، لإنقاذ بيت المقدس .

لم يستجب إلى نداء البابا سوى إمبراطور النمسا هنرى السادس ، الذى جمع جيشاً وأسطولا ، لم يحققا شيئاً من أهداف الصليبيين ، وعاد من حيث أتى .

فدعا البابا إنوسنت الثالث إلى حرب تتجه فيهـــا قوى الصليبيين إلى استخلاص بيت المقدس ، واستجاب للبابا ملك النمسا ، وكثير من أمراء ألمانيا

واجتمع جيش عدته مائتان وخمسون ألفاً أكثرهم من الألمان ، ونزلوا بعكا سنة ٦١٤ هـ ، ومضى الصليبيون من عكا ، ينهبون البلاد ، ويأسرون ، ثم يعودون إلى مدينتهم ، من غير أن تحدث بينهم وبين العادل معارك حاسمة ، فإنه قد تجنب لقاءهم ، إذ كان فى قلة من الجند ، أما باقى عسكره فتفرق فى البلاد ، وكان العادل حازما كثير الحذر ، فخاف أن يهزم إذا التقى بهم ، ومضى إلى دمشق ، وأرسل فى طلب الجند من أجزاء إمبراطوريته ، فى حين ظل الصليبيون يعيثون فى الأرض فساداً ، ويقوون بعض قلاع الساحل . ورأى الصليبيون أن أفضل طريق للتغلب على عدوهم ، هو ضربه فى مكان حيوى منه ، وكانت مصر ذلك المكان الحيوى المختار ، فما إن قوى الصليبيون بأسطول وأمداد جديدة ، حتى وجدوا فى أنفسهم الشجاعة للنزول على دمياط فى صفر سنة ٦١٥ هـ ، وهم نحو سبعين ألف فارس وأربعمائة راجل .

كانت مدينة دمياط محصنة تحصيناً قوياً ، ففضلا عن المزايا التى منحتها إياها الطبيعة ، فجعلتها شبه جزيرة يحيط بها الماء من الشرق والغرب والشمال ، عنى ملوك مصر بتحصينها ، ووضع حاميه قوية فيها ، تدفع عنها غارات الفرنج ، الذين هاجوها مراراً عدة فى عهد صلاح الدين ، فردهم على أعقابهم ، وعنى بأمر تقويتها ، وزارها ليتفقد أمورها مع ولديه سنة ٥٧٢ هـ ، وكانت إحدى موانى الأسطول المصرى فى عهده ، وبنى الملك العزيز لها سوراً ، وكان لها برج ضخم على النيل ، بالقرب من شاطىء البحر فى غاية القوة والامتناع ، فيه سلاسل من حديد عظام القدر والغلظ ، تمتد فى النيل لتمنع المراكب الواصلة فى البحر الأبيض من عبور أرض مصر ، وتمتد هذه السلاسل إلى برج آخر حصين مقام فى وسط النيل ، وكانا مشحونين بالمقاتلة والعدد .

نزل الصليبيون بالبر الغربى للنيل ، وجعلوا هدفهم الأول الاستيلاء على البرج

المقام فى وسط النيل ، فأقاموا لذلك أبراجاً على سفنهم ، ولكن نيران الحامية معززة بجيش الكامل على الشاطىء الشرقى ردت هجماتهم الأولى ، ولم يستطع الصليبيون امتلاك هذا البرج ، وظلوا كذلك أربعة أشهر ، جمع فيها الفرنج مراكب بعضها إلى بعض ، وأقاموا عليها قلعة كبيرة ، أسندوها إلى البرج ، وقاتلوا من فيه ، حتى اضطروهم إلى التسليم ، وكانت الحسرة على هذا البرج كافية لموت العادل كمداً .

لم ييئس الملك الكامل ، بل نصب عوض السلاسل جسراً عظيماً ، امتنع به الفرنج من سلوك النيل ، وقاتلوا عليه قتالا شديداً متتابعاً حتى قطعوه ، فأخذ الكامل عدة مراكب كبار ، وملأها ، وخرقها ، وغرّقها فى النيل ، فمنعت المراكب من سلوكه ، فلما رأى الفرنج ذلك ، قصدوا خليجاً كان النيل يجرى فيه قديما ، فحفروا ذلك الخليج ، وعمقوه ، وأجروا الماء فيه إلى البحر الملح ، وأصعدوا مراكبهم فيه ، إلى مكان يقابل المنزلة التى فيها الملك الكامل ، وكان قد جمع جيوشه ، ونزل إلى جنوب دمياط فى مكان لا يزال يعرف باسم العادلية ، وهاجموا الكامل غير مرة ، ولم يظفروا منه بشىء ، واجتمع عنده من الجند ما لا ينحصر عدده .

غير أن أمراً حدث غير اتجاه الحرب ، ذلك أن مؤامرة دبرت للملك الكامل ، كان يراد بها خلعه عن العرش ، فاضطر الكامل إلى ترك ميدان الحرب ليلا ، وأصبح الجند ، فلم يجدوا سلطانهم ، فمضوا لا يلوون على شىء ، ولم يقدروا على أخذ شىء من خيامهم وذخائرهم ، وأموالهم وأسلحتهم ، إلا اليسير الذى يخف حمله ، وتركوا الباقى بحاله من ميرة وسلاح ودواب وغير ذلك ، ولما لم ير الفرنج أحداً عبروا النيل إلى بر دمياط آمنين ، فى ٢٠ ذى القعدة سنة ٦١٥ هـ ، وغنموا ما فى عسكر الكامل ، فكان عظيما يعجز العادين ، ومضوا إلى دمياط ، وأحدقوا

بها ، وحاصروها براً وبحراً ، وأقاموا عليهم خندقاً بنوا عليه سوراً ، يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين ، وألحوا على أهل دمياط بالقتال ، ومنعوا عنهم الأقوات ، فقلّت ، واشتد غلاء الأسعار ، وأنهكت الأمراض أهل المدينة ، وامتلأت الطرقات من الأموات ، وعدمت الأقوات ، وصار السكر فى عزّة الياقوت ، وفقدت اللحوم ، فلم يقدر عليها بوجه ، وآلت بالناس الحال إلى أن لم يبق عندهم غير شىء يسير من القمح والشعير ، ومع هذا صبروا صبراً لم يسمع بمثله .

ويدلنا على ما كان ينتاب أهل دمياط من مخاوف وآلام هذه الرسالة الشعرية التى كتبها أحد أبنائهم ، وهو الأمير جمال الدين الكنانى ، وألقى بها إلى الملك الكامل فى سهم نشاب ، وهى :

يا مالكى ، دمياط ثغر هدمت	شرفاته ، كادت تجث أصوله
يقريك من أزكى السلام تحية	كالمسك ، طاب دقيقه وجليله
ويقول عن بعد ، وإنك سامع	حتى كأنك جاره ونزيله :
يأيها الملك الذى ما إن يرى	بين الملوك شبيهه وعديله
هذا كتاب موضح من حالتى	ما ليس يمكننى لديك أقوله
أشكو إليك عدو سوء أحدقت	بجميعه فرسانه ، وخيوله
فالبر قد منعت إليه طريقه	والبحر عزّ لنصره أسطوله
نخضوعه باد على أبراجه	وحنينه ، وبكاؤه ، وعويله
ولو استطاع لأمّ بابك لائذا	لكنه سدت عليه سبيله
فقد انتهت أدواؤه ، وتحكمت	علاته ، ومحا عليه نحوله
وبقى له رمق يسير يرتجى	أن يشتفى ، لما دعاك ، عليله
فاحرس حماك بعزمة تشفى بها	داء لمثلك يرتجى تعليله
فالله أعطاك الكثير بفضله	ورضاه من هذا الكثير قليله

فالعذر فى نصر الإله ودينه ما ساغ عند المسلمين قبوله
والثغر ناظره إليك محدق ما إن يمل من الدموع همولة
ولئن قعدت عن القيام بنصره جفت نضارته ، وبان ذبوله
ووهت قوى القرآن فيه ، ورفعت صلبانه ، وتلى به إنجيله
وعلا صدى الناقوس فى أرجائه وخفى على سمع الورى تهليله
هذا وحقك وصف صورة حاله حقاً ، وجملته ، وذا تفصيله
وكفاك يابن الأكرمين بأنه أضحى عليك من الورى تعويله
حقق رجاء فيك ، يامن لم يخب أبداً لراجي جوده تأميله
واذخر ليوم البعث فعلا صالحا الله ضامن أجره وكفيله

ولكنه برغم الجهود التى بذلها الكامل فى جمع جيشه المبعثر ، ومهاجمة الصليبيين ، وحرق جسورهم ، وإتلاف آلات حصارهم ، ظل الحصار مضروبا على المدينة ، وبدأ الجوع يفعل فعله فى أهلها ، فلم يبق من حاميتها التى كان يقدر عددها بخمسين ألف رجل سوى أربعة آلاف ، بينما كانت الإمدادات تتوالى بكثرة على الصليبيين

لم يستطع أهل دمياط الجياع المنهوكو القوى ، ولا حاميتهم الضعيفة قتالا ، فسلمت البلد إلى الفرنج فى ٢٧ شعبان سنة ٦١٦ هـ ، ودخل الفرنج دمياط ، ووضعوا السيف بدون رحمة فى بقية الحامية البائسة ، وفى الناس ، حتى إنه لم يعرف عدد من قتل لكثرتهم ، ومضى الصليبيون يحصنون أنفسهم بدمياط ، ويجعلونها معقلا منيعا ، وأقبل الفرنج يهرعون إليها من كل حدب ، وأصبحت دار هجرتهم .

كان لسقوط دمياط أثر بالغ فى نفس المسلمين ، ومر الإسلام فى فترة حرجة ، ضاقت لها صدور أهله ، وأعلن الكامل فى مصر الجهاد العام ، وكتب إلى إخوته

وأقاربه بالشام ، يستنجد بهم ، كما أرسل إلى بغداد يسترخ بالخليفة الناصر لدين الله، وكان الخطر عظيما على المسلمين ، فأقبل الأمراء على مناصرة الكامل ، حتى ليقال: إنه منذ معركة عكا ، فى أيام صلاح الدين ، لم تتحد الأسرة الأيوبية فى جبهة واحدة ، كاتحادها أمام خطر الفرنج بعد أن أخذوا دمياط . وكان الكامل قد عسكر على البر الشرقى أمام طلخا ، فى المنزلة التى عرفت بالمنصورة ، واجتمع بها من المسلمين عالم كبير .

ظل الفرنج عاما ونصف عام فى دمياط ، يتنازعون أمرهم بينهم ، فلما قدمت عليهم الأمداد خرجوا لحرب السلطان ، وظلوا يتقدمون حتى ، وقفوا أمام المنصورة ، ووجد الكامل نفسه غير مساو للقوة الجارفة التى تقدم بها الصليبيون لامتلاك مصر ، فأرسل إليهم يعرض عليهم أن يرد إليهم مملكة بيت المقدس ، وجميع ما فتحه صلاح الدين على أن يردوا إليه دمياط فحسب ، ولكن هذا العرض المغرى قوبل بالرفض من الصليبيين . وهنا رأى المسلمون أنه لا بد من القتال ، وانتشرت فرق من الجيش الإسلامى خلف العدو وحوله ، وقطعوا سد النيل ، فانفجر الماء ، وأصبح معسكر العدو كأنه بحيرة ، ووجد الصليبيون أنفسهم فى شبه جزيرة ، يحيط بهم الماء والأعداء ، لا يستطيعون التقدم ولا التقهقر ، وفى ليلة حاولوا الهرب إلى دمياط ، فحال المسلمون بينهم وبينه ، وملكوا الطريق الوحيد الذى يمكن أن يسلكه الفرنج إن أرادوا العودة إلى دمياط ، فلما رأى الفرنج ذلك سقط فى أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلوا ، وحاولوا الزحف والقتال ، ولكنهم رأوا ما أملوه بعيداً ، فأرسلوا إلى الملك الكامل يسألون الأمان لأنفسهم ، وأنهم يسلمون دمياط بغير عوض ، ورأى الملك الكامل إجابتهم ، ورأى غيره من إخوته مناهضتهم ، واجتثاث أصلهم البتة ، فخاف الملك الكامل ، وهو رجل سياسي كأبيه ، إن فعل ذلك ، أن يمتنع من بقى منهم بدمياط أن يسلمها ، ويحتاج الحال

إلى منازلتها مدة ، فإنها كانت ذات أسوار منيعة ، وزاد الفرنج عنـدما استولوا عليها فى تحصينها ، ولا يؤمن فى طول محاصرتها أن يفد ملوك الفرنج نجدة لمن فيها ، وطلبا لثأر من قتـل من أكابرهم . هذا وقد ضجرت عساكر المسلمين ، وملت من طول الحرب ، فإنها مقيمة فى محاربة الفرنج ثلاث سنين وأشهرا ؛ فتم الصلح ، وتسلم المسلمون دمياط فى يوم الأربعاء ١٩ رجب سنة ٦١٨ هـ .

كان المعظم عيسى أثر فعال فى هذه المعركة القوية ، التى كان انتصار الفرنج فيهـا ، إذا انتصروا ، خطرا داهما على الإسلام كله : فقد أراد العادل فى أول الأمر أن يشغل الفرنج ، ويدفعهم إلى القتال فى جبهتين . فبعث بالمعظم إلى الساحل ومعه جند الشام ، ليكون فى مقابلة الفرنج ، حتى يشغلهم عن اللحاق بإخوانهم فى دمياط ، ولم يلبث المعظم أن التقى بالفرنج ، وقاتلهم ، وانتصر عليهم ، وأسر منهم طائفة ، أدخلهم القدس منكسى الأعلام ، وكان ذلك سنة ٦١٥ هـ .

ولما مات العادل أسرع إلى أخيه الـكامل ، ملبيا نداءه ، عندما استنجـد بإخوته أن ينصروه ، وكان المعظم أثره فى إنقاذ عرش أخيه الـكامل ، كما سبق أن ذكرنا ، وبهذا تجنبت البلاد فتنة ، كانت جديرة أن تودى بهـا ، وأن تحطم قواها فى خلاف داخلى ، يدع للعدو الفرصة لامتلاك البلاد .

ولما سقطت دمياط بكى الـكامل والمعظم بكاء مرا ، ثم قال الـكامل لأخيه المعظم : قد فات المطلوب ، وجرى القدر بما هو كائن ، وما فى مقامك ها هنـا فائدة ، والمصلحة أن تنزل إلى الشام ، تشغل خواطر الفرنج ، وتستجلب العساكر من بلاد الشرق . قال سبط بن الجوزى : فـكتب المعظم إلىَّ ، وأنا بدمشق كتابا بخطه ، يقول فى أوله : قد علم الأخ العزيز بأن قد جرى على دمياط ما جرى ، وأريد أن تحرض الناس على الجهاد ، وتعرفهم ما جرى على إخوانهم أهل دمياط ، من الـكفرة أهل العناد . قال السبط : فجلست بجامع دمشق ، وقرأت كتابه

عليهم ، فأجابوا بالسمع والطاعة ، وقالوا نمتثل أمره على حسب الاستطاعة ، ومضى المعظم إلى الساحل فافتتح بعض بلاده من يد الفرنج ، ثم مضى إلى أخيه الأشرف يطلب منه أن ينجد أخاه الكامل بمصر ، قال سبط ابن الجوزى : « كان المعظم أحرص الناس على خلاص دمياط والغزاة ، وكان مصافياً لأخيه الكامل ، وكان الأشرف مقصراً فى حق الكامل ، مباينا له فى الباطن ، فلما اجتمعت العساكر على حران قطع بهم المعظم الفرات ، وسار الأشرف فى آثاره . . . فاجتمعت بالمعظم . . . فقال لى : قد سحبت الأشرف إلى هاهنا ، وهو كاره ، وكل يوم أعتبه فى تأخره ، وهو يتكاسل ، وأخاف من الفرنج أن يستولوا على مصر . وهو صديقك ، وأشتهى أن تقوم تروح إليه ، فقد سألنى عنك مرارا ، ثم كتب إلى أخيه كتابا بخطه نحو ثمانين سطرا ، فأخذته ومضيت إلى سلميه ، وبلغ الأشرف وصولى ، فخرج من الخيمة ، وتلقانى ، وعاتبنى على انقطاعى عنه ، وجرى بينى وبينه فصول ، وقلت له : المسلمون فى ضائقة ، وإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ملكوا إلى حضر موت ، وعفوا آثار مكة والمدينة ، والشام وأنت تلعب ، قم الساعة وارحل . . . وسبقته إلى حمص ، فتلقانى المعظم ، وقال : ما نمت البارحة ، ولا أكلت اليوم شيئاً ؛ فقلت : غدا يصبح أخوك الأشرف حمص .

ومن ذلك يبدو لنا جهد المعظم وحرصه على جمع الكلمة ، وغيرته على استخلاص دمياط وإنقاذ مصر من أيدى الفرنج .

ولما سقطت دمياط بلغه أن الفرنج عازمون على أخذ القدس ، فعزم على تخريبه ، فقد رأى الأمراء أن الشام قد خلا من الجند ، وأن الفرنج إذا أخذوا القدس حكموا على الشام جميعه ، فمضى المعظم يخربه ، حتى لا يسقط غنيمة فى يد الفرنج ، وتتكرر مأساة فتحه التى وقعت فى أول عصر الحروب الصليبية ، فخربت

أسوار المدينة وأبراجها ، وخرج معظم من كان فى القدس من الناس ، ولم يبق فيه إلا عدد يسير ، ونقل المعظم ما كان فى القدس من الأسلحة وآلات القتال .

ومضى المعظم عيسى مع أخيه الأشرف لنجدة أخيهما الكامل ، وانتصر المسلمون على الفرنج ، ودخل الكامل دمياط بجنده وأهله ، وكان لذلك رنة فرح عمت أرجاء العالم الإسلامى .

واتفق أنه لما رحل الفرنج ، اجتمع فى ليلة عند الملك الكامل أخواه : المعظم عيسى ، والأشرف موسى ، فى حالة أنس ، فغنت جارية الأشرف ، مشيدة بجهود صاحبها ، وغنت جارية الكامل مشيدة بجهود صاحبها كذلك ، ثم نهض القاضى الأجل هبة الله بن محاسن ، قاضى غزة ، وكان فى مجلسهم ، وأنشد :

حبانا إله الخلق فتحا لنا بدا	مبينا ، وإنعاما ، وعزا مجددا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه	وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله	الطغاة ، وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه	صقيلا ، كما سل الحسام مجردا
فلم تر إلا كل شلو مجدل	ثوى منهم ، أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون فى الأرض رافعاً	عقيرته فى الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى ، إن عيسى وحزبه	وموسى جميعاً ينصران محمدا

وسجل الشعراء دور الملك المعظم فى هذه الحملة ، وأشادوا به ، كما سنتحدث عن ذلك فيما يلى . وكان المعظم يذكر هذه المعركة ، ويرجو أن ينال عليها جزيل الثواب من الله يوم اللقاء ، فكان يقول : لى عند الله تعالى فى أمر دمياط ما أرجو أن يرحمنى به .

ولم يتصل المعظم عيسى بالفرنج فى معركة دمياط فحسب ، بل هزمهم على

القيمون ، وهو حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين . ولما شاع عزم الفرنج على أخذ بيت المقـدس جهزه أبوه العادل بطائفة من الجند إلى نابلس ، كي يحول بين الفرنج وأخذ القدس .

وكان دائم الاسـتعداد لملاقاة الفرنج ، يرسل عليهم جواسيسه ، لينبئوه بأخبارهم ، قال سـبط ابن الجوزى : كان فى أيام الفتح مع الفرنج يرتب النيران على الجبال من باب نابلس إلى عكا ، وعلى عكا جبل قريب منها يقال له : الكرمل ، كان عليه المنورون ، وبينهم وبين الجواسيس علامات ، وكان له فى عكا أصحاب أخبار ، وأكثرهم نساء الخيـالة ، فكانت طاقاتهم فى قبالة الكرمل ، فإذا عزم الفرنج على الغارة فتحت المرأة الطاقة ، فإن كان يخرج مائة فارس أوقدت المرأة شمعة واحدة ، وإن كانوا مائتين شمعتين ، وإن كانوا يريدون قصـد حوران أو ناحية دمشق أشـارت إلى تلك الناحية ، وكذا إلى نابلس ، فكان قد ضيق على الفرنج الطرق ، وكان يعطى النساء والجواسيس فى كل فتح جملة كثيرة ، فقلت له فى بعض الأيام : هذا إسراف فى بيوت الأموال ، فقال : « . . أنا أفدى المسلمين بالشىء اليسير ، وأحفظ الخطير بالحقير » وروى عن والى الشـوبك أنه قال : « كنت والياً بالشوبك ، وكان بها راهب منفرد فى بعض الجبال ، فجاءنى كتاب المعظم بنفيه ، فنفيته ؛ فغاب سـنة ، وجاءنى بكتاب المعظم ، يقول : أعده إلى مكانه ، وتوص به ، فبحث عن قصته ، وإذا به قد بعث به إلى البحر وكشف له أخبار (الأنبرور) على وجهها . وإنما نفاه حتى لا يتهم ، وأطلق له أرضا يعيش منها ، وأعطاه مائة دينار .

وكان صلبا لا يلين للفرنج ، قدم عليه سنة أربع وعشرين وستمائة رسـول الامبراطور فردريك الثانى يطلب منه البلاد التى كان قد فتحها عمه صلاح الدين ، فأغلظ له فى القول ، وقال : « قل لصاحبك : ما أنا مثـل الغير ، ما له عندى إلا السيف »

والمعظم يقصد بالغير هنا أخاه الملك الكامل الذى عقد مع هذا الامبراطور نفسه معاهـــدة يسلم له بمقتضاها مدينة القـــدس ، وكان لهذه المعاهدة أثرها السيء فى المسلمين، ومات المعظم قبل أن يرحل الإمبراطور إلى بيت المقدس ، ولو أنه عاش فربما لم يكن الامبراطور قد نجح فى أخذ بيت المقـدس ، على أن ابن المعظم هو الذى استرد القدس كما سنرى .

ومن ذلك يتبين أن أهم ما أبلى فيه المعظم البلاء الحسن هو معركة دمياط ، وكان لها أثرها البالغ فى الشعر الذى مدح به ، وخلد ذكراه .

أخلاقـــه

كانت ديمقراطية الملك المعظم من أكبر ما استرعى أنظار معاصريه ومؤرخيه، فقد راعهم أن يمشى فى الأسواق والطرق لا تصحبه مظاهر السلطان ، ولا أبهة الملك ، وأن يروه ببيت المقدس فى الجامع الأقصى يزاحمه الرجال والنساء والصبيان ، ولا يردهم أحد عنه ، وقد نشأ منذ صغره على هذه الديمقراطية فرأيناه يسعى إلى أساتذته ، ويجلس مع الطلبة بين أيديهم ، وقرأنا كتابه إلى سبط ابن الجوزى يدعوه فيه بالأخ . وشاعت ديمقراطية المعظم بين الناس ، حتى ضربوا به المثل فيها ، ومدحوه بها ، ورأوه نمطا وحده بين أبناء أسرته . والواقع أن شخصية المعظم المستقلة كان لها من الاعتداد بالنفس ، ما دفعه إلى أن يعتنق ما يراه صوابا، وإن خالف تقاليد أسرته ، فاختـار مذهب أبى حنيفة ، ولم يكن فى أسرته حنفى سواه ، وشجع دراسة الفلسفة ، ولم يكن من إخوته مشجع لها ، مما يدل على شخصية مستقلة ، تتبع ما تراه ، ولا تنقاد .

ومما سجله له مؤرخوه ، ويتصل شديد الاتصال بهذه الديمقراطية تواضعه ، وحفظه لمودة صحبه وأصدقائه ، وفى قصة زيارته لابن عنين عندما أرسل إليه يخبره

بمرضه واحتياجه إلى المال ما يدل على هذه الصفة أعظم الدلالة ، وقد روينا ذلك فيما مضى .

كما يتصل بذلك أيضا حسن عشرته ، ورقة معاملته ، حتى ليظل واقفاً ، بعد أن التقى بأخيه الكبير الكامل محمد ، فكان ذلك نوعاً من التأدب سر منه الكامل محمد وابتهج له .

وكان يتأثر بالوعظ ، ويرق قلبه له ، حتى تفيض عينه بالبكاء ، قال سبط ابن الجوزى : كان يحضر مجالسى بجامع دمشق ، وبالقدس ، ويبكر إلى الجامع ، فيقعد عند المنبر الذى عند باب المشهد بين العامة ، فلما رجع من الحج فى سنة ٦١١ هـ ، حضر مجلسى بجامع دمشق ، فأنشد قصيدا لجدى رحمه الله ، يقول فيها :

سلام على الدار التى لا نزورها على أن هذا القلب فيها أسيرها

من أبيات ؛ فلما فرغ من القصيدة بكى ، وزاد بكاؤه ، نخفت عليه ، لا يفتضح بين الناس ، فقلت : « لا نسى الله مواقفك فى رضائه ، وسهرك الليالى فى جهاد أعدائه » .

وكان شجاعاً ، هزم الفرنج غير مرة ، وخرب مدناً لهم وحصوناً كثيرة فى الساحل ، وجمع إلى هذه الشجاعة تحمساً فى لقاء العدو ، ومقدرة على تعبئة الجيوش وتنظيمها ، وعناية بأمر الجند ، واهتماماً بشئونهم ، حتى بز إخوته فى ذلك كله ، وكان أعظمهم مهارة ومقدرة .

يبت فى الأمور مسرعا ، ويتحيل لما يعترضه من الصعاب ، حتى يتغلب عليه ، فى سرعة ومهارة معا ، وقصته مع ابن المشطوب التى رويناها فيما مضى مثال صدق ، يدل على أنه معروف بهذه الصفة ، حتى استنجد به أخوه عندما قدم إليه ، فأوحى إليه خاطره بالحل السريع الموفق ، ولم يلبث أن نفذه ، فأنقذ أخاه ، وأنقذ مصر والإسلام .

وأكسبه ذلك برغم ديمقراطيته هيبة ، يشعر بها جلساؤه ، وتدفعهم إلى إجلاله وحبه معاً .

أما صلته بشعبه ، فيبدو أنه كان رفيقاً برعيته ، محسناً إليهم ، ويدل على ذلك ما قوبل به نبأ وفاته من هلع وجزع ، فقد جرى على الرعية فى وفاته ما لم يجر عند موت أحد من الملوك ، وشارك فى البكاء عليه نساء الشعب ورجاله ، فقد ظل الجميع يبكونه فى الليل والنهار ، ولا يكون ذلك إلا إذا شعر الشعب بخسارة عظيمة ألمت به .

ويظهر أنه كان مولعاً بالعمارة ، ففضلا عن المدارس التى أنشأها ، وسبق أن تحدثنا عنها ، عنى بطريق الحاج ، فهدم فى مواضع كانت وعرة كثيرة الصوان ، وبنى فى معان حمامين للرجال والنساء ، وزرع طريق الحجاز من باب الجابية إلى مكة ، وردم البرك وعمر المساجد ، ووجد الحجاج فى ذلك رفقاً ، قالوا : لو عاش لسار الناس إلى مكة من غير دليل . وفى دمشق بنى سورها ، وخاناتها .

ومن مظاهر تدينه حجه إلى الحرمين بنفسه ، وإعانة غيره على الحج ، بما وقفه من ضياع بالساحل على الحاج ، وبتيسيره الميرة لهم فى طريق حجهم . وحرصه على الصلاة إلى آخر أيام حياته .

ويكاد مؤرخوه يجمعون على وصفه بالتدين ، ولم أر مؤرخا غمز تدينه إلا مازعمه بعضهم من أنه كان فى شبابه منصرفا إلى اللهو ، ونشك فى هـذا الزعم ، ويؤيد شكنا فيه ، ما أثبته المؤرخون من عنايته المبكرة بالعلم ، واتخاذه بطانة من صفوة مفكرى عصره ، مما يرجح لدينا بعده منذ الصبا عن ملاهى الشباب الآثمة . ولم يأخذ عليه مؤرخ ما يحسب عليه بعد أن ألقيت إليه مقاليد الحكم ، اللهم إلا حبه لشرب النبيذ ، ومع حبه له أراد أن يصبغ إباحة شربه باسم الدين ، فطلب من بعض علماء دمشق أن يفتى بإباحة النبيذ ، فأبى . وإن كنا لا نقر المعظم على معاملته لهذا الرجل الذى أبى الإفتاء فقد عزله من منصبه

وكان حبه للنبيذ ، وتخريبه بيت المقدس سببا فى إثارة الشعر ضده ، وذمه إياه ، فقد كان القدس مهوى أفئدة المسلمين ، والهدف الذى يقصدون إليه من ردهم الصليبيين عن بلادهم . ومما بقى لنا من هذا الشعر الذى هجا المعظم قول بعضهم :

فى رجب حلل الحميا وأخرب القدس فى المحرم

وفى هذا البيت مبالغة ، لأن المعظم لم يحلل الخمر ، وإنما أباح لنفسه شرب النبيذ ، وفى شرب النبيذ خلاف بين الشافعى وأبى حنيفة ، فبينما يحرمه الأول ، إذا بالثانى يبيح شربه .

وقال مجد الدين محمد بن عبد الله فى خراب القدس :

مررت على القدس الشريف مسلما على ما تبقى من ربوع كأنجم
ففاضت دموع العين منى صبابة على ما مضى من عصرنا المتقدم
وقلت له : شلت يمينك ، خلها لمعتبر ، أو سائل ، أو مسلم
فلو كان يفدى بالنفوس فديته بنفسى ، وهذا الظن فى كل مسلم

وهو شعر ناطق بالنقمة على تصرف المعظم . وكان المعظم مظلوماً بهذا الهجاء ، فإنه لم يخرب بيت المقدس رغبة فى هذا التخريب ولا حباً له ، ولكن دفعت إليه الضرورة دفعاً ، فقد خاف أن يسقط محصناً فى أيدى الفرنج ، فيجد المسلمون عنتاً من تملكهم المدينة ، ويكون ذلك تمهيداً لاستيلاء العدو على الشام كله . ولم يقدم المعظم على تخريبه إلا بعد أن اجتمعت كلمة الأمراء على هذا التخريب .

ولا ينبغى أن نختم هذا الفصل إلا بعد ذكر تسامحه ، وترك الفرصة للمذنب إذا أبدى رغبة فى التوبة وعزما عليها . رووا أن قاطع طريق يدعى (قنديل) اشتد ساعده بين بيسان وأريحا ، فتعرض للمعظم نفسه عند ما خرج من دمشق يريد بيسان ، فتمكن المعظم من القبض عليه ، ومضى به إلى القدس ، وأمر أن يشنق . ولكن (قنديلا) تقدم إليه فى شجاعة قائلا: هل لك أن تستبقينى ، أحمى

جلادك ، وأجاهد الكفار بين يديك ، على أن تستحلفنى ، وأقسم لك على أن أفى بوعدى . فأراد المعظم أن يمهد له طريق التوبة ، وأن يستفيد من شجاعته وبسالته، وأن يكون قوة فى يده ، فخلع عليـه ، واستحلفه ، وأطلقه ، فنزل إلى الغور ، وأقام به هو ورجاله حرساً له ، فأمنت الطريق ، وحفظت الأمـوال ، وفى إحدى المعارك مع الفرنج جاهدهم جهاداً عظيما ، وقتل منهم جماعة ، حتى استشهد .

أدبـــه

أغرم المعظم بالعلم والأدب ، أحاط نفسه بحاشية من أهلهما ، وكان يقعد فى كل ليلة جمعة ، ويجلس عنده القضاة ، والعلماء ، والفقهاء ، والشعراء ، وأرباب الفنون ، ويتباحثون ويستدلون .

وأدرك المعظم حظاً كبيراً من الثقافة الأدبية ، جعلت قلمـه مطواعا له إذا كتب ، وقد رأيناه فى كتابه الذى بقى لنا ، وهو كتـاب السهم المصيب — ذا أسلوب واضح ، وعبارة بينة ، وتلك أيضاً هى سمة الأثر الأدبى الباقى له ، وهى الرسالة التى أرسلها إلى سبط ابن الجوزي ، وقد أوردناها فيما مضى .

وكانت ثقافته الأدبية تدفعه إلى أن يتمثل بالشعر ، فى مواطن التمثل به ، كما رأيناه عند ما التقى بأخيه الكامل فى الإسكندرية ، فترجلا واعتنقا ، ثم بقى واقفاً بعد أن ركب أخوه الكامل ، فلما أشار إليه بالركوب ، أشار المعظم إلى الفرس الذى تحته ، وأنشد :

وإذا المطى بنا بلغن محمدا   فظهورهن على الرجال حرام

فأطرب ذلك الكامل .

ولم يقنع المعظم ما ناله من الثقافة الأدبية ، بل أراد أن يضـع اسمه فى سجل الشعراء ، فمضى يقرض الشعر ، حتى صار له فيه ديوان ، ولعله بذلك كان يريد أن

يؤكد انحداره من أصل عربي ، فإنه على ما يظهر كان مشغوفا بأن يثبت نسبه إلى العرب ، ويدلنا على ذلك أن رجلا فى عصره يدعى الحسن بن غريب بن عمران الحرسى ، وضع مدرجا أثبت فيه أن الأسرة الأيوبية ، تنحدر من أيوب بن شادى ابن مروان . . . ومضى يعد الآباء حتى انتهى إلى مضر بن نزار بن معد ابن عدنان ، ثم رفع هذا النسب إلى آدم عليه السلام . وجعل من آباء الأسرة على بن أحمد بن أبى على ، ممدوح المتنبى ، والمعروف بالخراسانى ، وهو الذى يقول فيه المتنبى من قصيدة :

شرق الجو بالغبار إذا سا　　ر على بن أحمد القمقامُ

وجعل من الآباء أيضاً الحارث بن عوف بن أبى حارثة صاحب الحمالة ، فهو الذى حمل الدماء بين عبس وذبيان ، وشاركه فى الحمالة خارجة ابن سنان أخو هرم بن سنان ، وفيهما قال زهير بن أبى سلمى قصائد كثيرة ، منها قوله :

وهل ينبت الخطىَّ (١) إلا وشيجه (٢)　　وتغرس إلا فى منابتها النخل

وقد قدّم الحسن بن غريب هذا مدرجه إلى الملك المعظم ، وسمعه عليه هو وولده الناصر داود ، وكتب لهما بسماعهما عليه فى آخر رجب سنة تسع عشرة وستمائة . وهذا يدل على ما كان يعتلج فى نفسه من رغبة فى أن يكون منحدراً من أصل عربى ، وقد يكون لهذه الرغبة دوافع شتى: منها أن الناس لا يذكرون للأسرة جداً بعد شادى ، ولما كان العرب نبيهم صاحب هذا الدين الذى يقف نفسه للدفاع عنه لم يجد حرجاً فى أن يحسب نفسه منهم ، ومنحدراً من أشرافهم الذين كان لهم مجد فى الإسلام ومجد فى الجاهلية ، بل لم يرض إلا بأن ينتهى نسبه بما ينتهى به نسب صاحب هذا الدين ، وهكذا أشبع الحسن بن غريب رغبة مليكه ،

---

(١) الخطى : الرمح .　　(٢) الوشيج : شجر الرماح

فقدم إليه هذا النسب ، مع أن جمهور المؤرخين يذكرون أنهم لايعرفون للأسرة الأيوبية أبًا بعد شادى .

أما الملك الأمجد الحسن بن الناصر داود بن المعظم عيسى ، فقد أنكر فى كتابه : الفوائد الدرية فى الفرائد الناصرية — انحدارهم من الأكراد ، مؤكداً أن جدهم أيوب بن شادى عربى نزل بهذه القبيلة الكردية ، وتزوج منها ، فصارت بينهم وبين الأكراد خئولة ليس غير ، كما كان بينهم وبين الأتراك خئولة أيضا ، فإن أمهات جماعة من أسلافهم كن تركيات . ويستدل الملك الأمجد على دعواه بأن صلاح الدين عندما تم إشراق شمسه لم يعرف أن كردياً من ناحية أبيه كان له به اتصال ، وإنما كان أقاربه من الأكراد يمتون إليه بوساطة الأم ، فلو أن أقاربه من ناحية أبيه كانوا أكراداً ، لأقبلوا عليه ، وانتهزوا هذه الفرصة التى سنحت لهم ، ليظفروا بنصيب من المجد والسلطان ، فلما لم نجد كردياً قد اتصل به من ناحية أبيه ، دلنا ذلك على أن أقاربه من ناحية أبيه لم يكونوا من هذه القبيلة الكردية . وقد أطال الملك الأمجد فى الحديث عن هذا النسب وتحقيق عربيته .

كان المعظم إذاً ممن يؤمنون فى قرارة نفوسهم بتفوق العنصر العربى ، فأقبل على ثقافته ينهل منها ، ويبغى أن يتفوق فيها ، ويكون له نصيب فى أهم مظاهرها ، وهو الشعر ، ورغم أنه كان فى بعض الأحيان لا يكاد لسانه يقيم وزن البيت أبى إلا أن يكثر من الإنتاج الشعرى حتى صار له كما قال مؤرخوه — ديوان ، لم يبق لنا منه إلا قليل لا يشفى الغليل ، منه فى الغزل قوله :

يا درة الغواص ، بل يا ظبية القناص ، بل يا دمية المحراب
عاديت فيك عصابة كانوا على قرب الديار وبعدها أحبابى

وقوله :

أحن إليكم ، ثم أسأل عنكم ... ومأواكم قلبي ، ففيم سؤالى !
فإن قلت لم ينطق بغيركم فمى ... وإن نمت كنتم فى المنام خيالى

وقد خانه التوفيق فى استخدام كلمة عصابة ، فقد صارت مقترنة فى الذهن بجماعة الأشرار. أما معنى الحنين إلى الأحباب ، والسؤال عنهم رغم أنهم يسكنون الفؤاد ، فقد أوضحه قبله القاضي الفاضل عندما قال :

ومن عجب أنى أحن إليهم ... وأسأل عنهم من أرى ، وهمُ معى
وتطلبهم عينى ، وهم فى سوادها ... ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعى

ومن شعره الذى يدل على أبهة الملك قوله :

هجم الشتاء ، ونحن بالبيداء ... فدفعت شرته بصوت غناء
وجمعت كافات يزول بجمعها ... هم الشتاء ولوعة البرحاء
قدح ، وقانون ، وكانى قهوة ... مع قينة ، فى قبة زرقاء

وفضلا عن دلالة الشعر على ترف الملك يدل على ثقافته ، فقديما جمع بعض الشعراء كافات الشتاء .

ومن شعره حين مات والده :

يقول أناس يعلمون فضائلى ... وعظم ارتياحى للمكارم والمجد :
ألا تحضر المرحوم فى حال دفنه ... فقلت ، ولى قلب يفتت بالوجد :
خشيت أرى الإسلام والملك والعلا ... وبذل الندى والحلم يودع فى اللحد

وكان المعظم فى امتناعه عن حضور دفن والده أكثر شاعرية منه فى شعره هذا ، فلا صلة بين علم الناس بفضائله وعظم ارتياحه للمكارم والمجد وبين الامتناع عن حضور دفن الوالد . كما أن الشطر الأول من البيت الثانى ذو أسلوب عامىّ رعا

أراد به المعظم حكاية ما قبل . أما البيت الثالث فأقوى الأبيات من حيث دلالته على ما يحمله المعظم لأبيه من تقدير وإجلال .

ومن شعره ، وقد مرض بالحمى :

زارت ممحصة الذنوب ، وودعت — تبّاً لها من زائر ومودع
باتت معانقتي ، كأني حبها — ومقيلها ومبيتها فى أضلعى
قالت ، وقد عزمت على ترحالها : — ماذا تريد ؟ فقلت : ألا ترجعى

أما أطول قصيدة بقيت لنا من شعر المعظم ، فهى التى أرسلها إلى أبيه الملك العادل ، عند ما كان هذا مقيما بالإسكندرية ، سنة اثنتين وستمائة ، كتبها متشوقاً إليه ، راجياً أن يزوره ، وأن يعود إلى الشام ليقمع العدو الرابض بها ، ويعرض بذكر مصر وشدة حرها ، ويقول :

روّ رماحك من دماء عداكا — وانهب بخيلك من أطاع سواكا
واركب خيولا كالسعالى[1] شزّباً[2] — واضرب بسيفك من يشق عصاكا
واجلب من الأبطال كل سميذع[3] — يفرى[4] بعزمك كل من يشناك[5]
واسترعف[6] السمر[7] اللدان ، وروها — واسق المنيـة سيفك السفاكا
وسر الغداة إلى العداة مبادراً — بالضرب فى هام العدو دراكا
وانكح رماحك للثغور ، فإنها — مشتاقة أن تبتنى بعلاكا
فالعز فى نصب الخيام على العدا — تردى الطغاة ، وترفع الأملاكا
والنصر مقرون بهمتك التى — قد أصبحت فوق السماك[8] سماكا

---

(١) السعالى : جمع سعلاة وهى الغول أو ساحرة الجن .
(٢) شزب : جمع شازب ، وهو الضامر .
(٣) السميذع : السيد الكريم الشريف ، والشجاع .
(٤) يفرى : يشق .
(٥) شناه : أبغضه .
(٦) رعف : خرج من أنفه الدم .
(٧) السمر : الرماح .
(٨) السماك : نجم .

فإذا عزمت وجدت من هو طائع ... وإذا نهضت وجدت من يخشاكا
والنصر فى الأعداء يوم كريهة ... أحلى من الكأس الذى روّاكا
والعجز أن نمسى بمصر مخيا ... وتحل من تلك المراص عراكا
فارح حشاشتك الكريمة من لظى ... مصر ، لكى تحظى الغداة بذاكا
فلقد غدا قلبى عليك بحرقة ... شغفاً ، ولا حر البلاد هناكا
وانهض إلى راجى لقاك مسارعاً ... فمناى من كل الأمور لقاكا
وابرد فؤاد المستهام بنظرة ... وأعد عليه العيش من رؤياكا
واشف الغداة غليل صب هائم ... أضحى مناه من الحياة مناكا
فسعادتى بالعادل الملك الذى ... ملك الملوك ، وقارن الأملاكا
فبقيت لى ياما لكى فى غبطة ... وجملت فى كل الأمور فداكا

وقد قوبلت هذه القصيدة عند ما تليت على الحاضرين من حاشية العادل بالإعجاب والإكبار ، « وأخذوا فى استحسان نظامها ، وتناسق غروب التئامها ، والثناء على الخاطر الذى نظم محكم أبياتها ، وأطلع من مشرق فكره آياتها » ، ومن الطبيعى أن تقابل القصيدة فى حضرة العادل والد منشها هذه المقابلة المليئة بالاستحسان ، وإظهار الإعجاب . والواقع أن القصيدة على حظ كبير من الجودة وإن خانه التوفيق فى التعبير عن بعض معانيه ، كما فى قوله : « واسق المنية سيفك السفاكا » ، ذلك أن السيف لا يسقى المنية ولكنه يسقيها الأعداء . وكنايته فى إنكاح الرماح للثغور كانت مقبولة فى عصره ، ولكنها ممجوجة فى أيامنا هذه ، والذوق السليم لا يقبلها . كما أن المقابلة الطبيعية التى كان المعنى يتطلبها قد أفلتت منه فى قوله : « تردى الطغاة ، وترفع الأملاك » ، إذ الطغاة يقابلهم العدول القسطون . وكان استخدام اسم الإشارة غير موفق فى قوله . « وتحل من تلك المراص عراكا » ، يشير بها إلى الشام التى فقدت حين غادرها

العادل المراك مع العدو . وفى قوله : « . . . لكى تحظى النداة بذا كا » ، ولا مرجع له فى الكلام ، وربما أشار به المعظم إلى جو الشام الرقيق فى الصيف ، فى الوقت الذى تلتظى فيه حرارة مصر . ولكن فات المعظم أن والده كان يقيم يومئذ بالإسكندرية عروس البحر ، ومهوى الصائفين .

وتسرب إلى شعره أسلوب عامى فى قوله : «ولا حر البلاد هناك» . واستخدم الرؤيا مكان الرؤية ، والأولى تكون فى النوم ، والشاعر لا يريدها ، ولكن يريد رؤية اليقظة .

كما أخطأ فى استخدام الأملاك ، إذ ظنها جمع (مَلَك) ، بينما هى جمع (مِلك). ولكن برغم ذلك كله نجد القصيدة جيدة ، نضعها فى الصف الأول بين أشعار الملوك .

وقد أراد العادل عند ما وردت هذه القصيدة أن يجيب عنها بأبيات من وزنها، وعلى قافيتها . وتولى ذلك على بن ظافر صاحب كتاب بدائع البدائه ، فنظم مسرعاً قوله :

وصلت من الملك المعظم تحفة ... ملأت بفاخر درها الأسلاكا
أبيات شعر ، كالنجوم جلالة ... فلذا حكت أوراقها الأفلاكا
عجبا ،وقد جاءت كمثل الروض، إذ ... لم تروها بالحر نار ذكاكا
جلت الهموم عن الفؤاد ، كمثل ما ... تجلو بغرة وجهك الأحلاكا
كقميص يوسف إذ شفت يعقوب ... رياه ، شفتنى مثله رياكا
قد أعجزت شعراء أهل زماننا ... حسنا ، فلم لا تعجز الأملاكا
ما كان هذا الفضل يعكى مثله ... أن يحتويه من الأنام سواكا
لم لا أغيب عن الشآم ؟ وهل له ... من حاجة عندى وأنت هناك ؟!
أم كيف أخشى ، والبلاد جميعها ... محمية فى جاه طعن قناكا

يكفى الأعادى حر بأسك فيهم … أضعاف ما يكفى الولى ندا كا
ما زرت مصر لغير ضبط ثغورها … فلذا صبرت، فديت، عن رؤيا كا
أم البـلاد علا عليهـــا قدرها … لا سيما مذ شرفت بخطا كا
طابت، وحق لها، ولم لا، وهى قد … حوت المعلى فى الفخار أخا كا
أنا كالسحاب: أزور أرضا ساقيا … حينا، وأمنح غيرها سقيا كا
مكنى جهــاد للعدو، لأننى … أغزوه بالرأى السديد دراكا
لولا الرباط وفضله لقصدت بالسـ … ـير الحثيث إليك نيل رضا كا
ولئن أتيت إلى الشآم، فإنمـا … يحتثنى شـوق إلى لقيا كا
إنى لأمنحك المحبة جاهدا … وهواى فيما تشتهيه هوا كا
فافخر، فقد أصبحت بى وبأ … سك الحامى، وكل ممالك يخشا كا
لا زلت تقهر من يعادى ملكنا … أبدا، ومن عاداك كان فدا كا
وأعيش أنظر إبنك الباقى أبا … وتعيش تخدم فى السعود أباكا

وقد أعجب العادل بهذا الرد، حتى لقد فاضت عيناه بالدمع عندما بلغ المنشد آخر قصيدته، والظاهر أنها عبرت عما يحس به نحو ابنه المعظم: من تقدير لشعره وذكائه ومقدرته على الدفاع عن بلاده.

وكان المعظم يرى أحيانا أن يرد على الشعر بالشعر، ذكروا أن المعظم كان نازلا مرة بنابلس، وفى معسكره بهاء الدين نصر بن محمد القيسرانى، وبعث المعظم جماعة من عسكره، فأغاروا على مدينة قيسارية من الساحل، وكانت يومئذ بيد الفرنج، فأسروا وقتلوا، وعادوا مظفرين منصورين، ومعهم من ثمار قيسارية أترج كثير وليمون، فأمر المعظم بملء طبق كبير من ذلك الليمون والأترج، وحمله بعض الغلمان إلى بهاء الدين بن القيسرانى، فلما وصلت الهدية كتب إلى المعظم يقول:

يأيها الملك المعظم ، والذى أضحت له الدنيا تزف عروسا
أوليتنى نعما ، إذا أظهرتها للناس أظهر حاسدوها بوسا
فليهنك اليوم الذى قد أطلعت فيه الكئوس كواكبا وشموساً

فكتب إليه المعظم :

يا من تفرد بالفضائل دائماً أبدا يؤسس مجدها تأسيساً
لا زلت فى درج المكارم راقياً تعلو ، وربعك بالثنا مأنوساً

فكتب إليه ابن القيسرانى :

مدح بمدح يستطاب ، ولا أرى ما بين ذينك درهما وفلوسا

فأرسل إليه المعظم كثيراً من الخلع والثياب والحنطة والشعير ، حتى كانت قيمة الجميع تناهز ألف دينار مصرية .

هذا ، ويظهر أن المعظم عند موت ابن له ألجم الحادث الشديد لسانه ، فلم يستطع رثاءه ، وطلب إلى ابن عنين أن يقوم هو بمهمة الرثاء ، وقد نهض ابن عنين بما طلب منه ، كما سنرى فى فصل مقبل .

وكان المعظم كشعراء عصره ممن يعجبهم الزخرف والصناعة فى العبارة ، قالوا : كان كثيراً ما ينشد هذا المقطوع :

ومورد الوجنات ، أغيد ، خاله بالحسن من فرط الملاحة عمه
كحل العيون ، وكان فى أجفانه كحل ، فقلت : سقى الحسام ، وسمه

وبعد ، فإن شعر المعظم كان جديراً أن يطلعنا على الكثير من خلجات قلبه ، وأمانى نفسه ، وما مر به فى الحياة من ضروب السعادة ، وأسباب الألم ، غير أن ديوانه قد فقد ، كما فقد الكثير من دواوين أبناء عصره ، وبقيت هذه القطع

القليلة ، وهى تدلنا برغم قلتها على أن المعظم لا يتخلف فى شعره عن الملوك الذين روى لهم التاريخ شعراً .

وقد ورثه فى حب الشعر وقوله ولده الناصر داود ، وحفظ له الزمن ديوانا لا يزال باقيا بين أيدينا ، وسوف نتحدث عن ذلك عند الحديث عن الناصر بن المعظم .

الشعـــر يمدحه

أقبل كثير من الشعراء على الملك المعظم ، يمدحونه ، ويطرزون شعرهم باسمه ، واشترك فى ذلك أعاظم شعراء عصره وكتابه ، عرفت من بينهم القاضى الرئيس جمال الدين بن شيث ، صاحب ديوان إنشائه ، وقد بقى من مدحه الملك المعظم قصيدة أطال فيها الغزل ، وليس فيها من المدح سوى بيت واحد ، ولست أدرى إن كان ابن شيث قد اقتصر فى المدح على هـذا البيت ، وكان يهدف إلى إشباع رغبة المعظم فى الغزل ، أو أن المدح قد فقد من القصيدة ولم يبق منها سوى الغزل والبيت الذى تخلص به إلى المدح . والقصيدة هى :

ما لقلبى إلى السلو طريق ... أنا من سكرة الهوى لا أفيق
ضحكوا يوم بينهم ، وبكينا ... فـتراءت سـحائب وبروق
لو ترانا ، وللمطالب إخفا ... ق إلينـا ، وللقلوب خفـوق
لرأيت الدليـل حيران منا ... كلمـا لاح للهـلال شروق
وسهام اللحاظ قـد فوقت لى ... فلهـا كلـما رمقت مروق
لست أدرى إذ أضرم اللثم وجدى ... أحريق رشفتـه أم رحيـق
ليدعنى أهـل الرشاد وشأنى ... ليس يدرى ما بالأسير الطليق
أقفرت دار من أحب ، وكم كا ... نت رفاق بها ، وغصن وريق
وهفـا نوبهـا الصفيق ، وللر ... يح عليها من حسرة تصفيق

دار لهوى ، وللهوى فى منا   نيها عروق تنمى ، ووجد عريق
أشبهتنى تلك الديار ؟ فجسمى   دارى ، ودمع عينى العقيق
وكأن الثياب لفظ ، وجسمى   فيه معنى من المعمى ، دقيق
ورشيق القوام يرشق باللحظ   ولا يستقل منه الرشيق
لحظه قاطع ، وما فارق الجفن   وفى جفنه عن السيف ضيق
مشقت نون حاجبيه ، فأبدى   ألف الحسن قده المشوق
لامه فى أصداغه لامة ، والـ   ميم فوه ، والرّق منه الرّيق
فبدا خط حسنه ، وهو منـ   شور ، وأخلاقه عليه خلوق
أحدق الحسن بالحدائق من خد   يه ، لما آذاها التحريق
مسحة للجمال مسح بركنيـ   هما وخدّ له الشقيق شقيق
وكأن الخال الذى لاح فى لجـ   ة خـديه ، طاف غريق
طابق الحسن قده بقوافى الشـ   عر ، فيه التجنيس والتطبيق
يردف الردف ، وهو مختصر الخصـ   ر : فذا مفعم ، وهذا دقيق
فائق الظرف ، فاتك الطرف عمدا   وهو فى كل حالة معشوق
يا خليلى ، إن العدو كثير   فاحذرنه ، وأين أين الصديق
والرفيق الذى يؤمل منه از   فق قاس ، فما رفيق رفيق
وبسوق الهوان يبتذل الفضـ   ل ، فما للفروع منه يسوق
فسد الناس والزمان ، ولا بد   بحق أن يخلق المخلوق
فالكريم الذى يغيث يغوث   واللئيم الذى يعق يعوق(١)
غير أن الملك المعظم فرد   فاق فضلا وخصه التوفيق

---

(١) يغوث ويعوق: اسما صنمين .

وإذا كانت القصيدة قد صبغت بألوان المحسنات البديعية، حتى صارت أشبه بجسم لا روح فيه، فقد كانت سمة العصر يومئذ تقضى بالعناية بهذه المحسنات، وتعمل على الاستكثار منها.

وإذا كان البيت الذى بقى من مدح ابن شيث لم يصور لنا سمة من سمات المعظم، فإن السخاوى مدحه بقصيدة، سجل فيها موقفه فى معركة دمياط، وما كان من أثره فى النصر الذى ظفر به المسلمون على الفرنج، وفى هذه القصيدة يقول:

سرى الملك المولى المعظم فى الدجى ... فأطلع نجم النصر بعد مغيبه
ورد على الإسلام بعد كآبة ... سروراً، وداوى الدين بعد شحوبه
تجلى بعيسى غمها[1]، واغتدى بها ... فريداً، وأضحى فخرها من نصيبه

وهو شعر عليه سمة العلماء.

ومدحه ابن الساعاتى، وخصص له قصائد طويلة، لم يبق لنا من معظمها سوى غزلها، والبيت الذى تخلص فيه من الغزل إلى المدح، فمن ذلك قصيدة بدأها بقوله:

تباً لما اختلق الواشى وما نقلا ... أما وعينيك، لا قال الأنام: سلا

أما تخلصه من الغزل إلى المدح فذلك حيث يقول بعد غزل طويل:

ذم النوى كل مخلوق، ورب نوى ... شكرت فيه جياد الخيل والإبلا
أفق من البين أهدت لى مطالعه ... وللبرية بدر التم، لا أفلا
وما الغمام سوى الملك المعظم جاد الأ ... رض جماً، فعم السهل والجبلا

ومن قصيدة أخرى بدأها بقوله:

رأى وقفة البين خطباً فظيماً ... تذيب القلوب، فتجرى دموعا

(١) أى انجلى غم دمياط بالملك المعظم عيسى.

ومضى مطيلا فى الغزل إطالة فاحشة ، بلغ فيه أربعة وثلاثين بيتاً ولم يبق من مدحه سوى هذا البيت :

أباح المظم منى حمى مصونا ، وقد كان عنه دفوعا

ومدحه بقصيدة جاء في أولها قوله يتغزل :

عاد منى الخيال طيف الخيال مرحبا مرحبا به من وصال

ولم يبق كذلك سوى بيت تخلصها ، وهو قوله :

لا أذم البين المشت وقد جادلنا بالمظم المفضال

وبأخرى أطال فى غزلها ، وبدأه بقوله :

نسيم الصبا مثلى يصح ويسقم كلانا معنى بالقدود متيم

وتخلص منه إلى المدح فقال :

فلا عائد إلا حنين وذكره ولا واصل إلا خيال مسلم
وجربت هذا الدهر ، حتى عرفته وما جاهل شيئاً كمن هو يعلم
وفتشت أحشاء الزمان وأهله فلا ماجد إلا المليك المظم

ومما مدحه به قصائد أخرى ، بدأ إحداها بقوله :

أهدى الضنا تذكارها ليلاء ، شط مزارها

وتخلص إلى المدح بقوله :

يعطى الأمان من الجـ ـدوب الموبقات جوارها
وإذا يخاف المحل فالملـ ـك المـظم جارها

وبدأ الثانية بقوله :

هيج بلبالى بأهل بابل ليل الخيال وصباح العاذل

ومضى إلى المدح متخلصا إليه بقوله :

وما رأيت كالوداع موقفا   يبكى القتيل لوعة بالقاتل
يمنو القوى للضعيف عنده   ويبلغ الجد فمال الهازل

يا سائلى ، لا خبت عنى سائلا   عن ناصرى على الزمان الخاذل
نلت المنى أرفل فى ثوب الغنى   بالملك المعظم بن العادل

وبغيرها كان مطلعها قوله :

سرت موهنا ، لا أبعد الله مسراها   وزارت ، فأغنى وابل المزن مغناها

وبقى تخلصه فيها من الغزل إلى المدح إذ قال :

فيابرد أنفاس الصبا ما ألذها   وأطيبها ، لولا الغرام وأنداها
وياطول غيظ الكاشحين لمرها   وقد جهلوا أنباءها ، وعرفناها
وليلة وصل ما ركضت مدامى   بأولها ، حتى عثرت بأخراها
بعثنا بها رسل الكرى تخبط الدجى   فعادت بأشباح الهوى إذ بعثناها
فقد هتفت تلك الهضاب من الحيا   كأن ندى الملك المعظم يغشاها

ولست أدرى السر فى إبقاء ابن الساعاتى على غزله دون مدحه . ولم يخص ابن الساعاتى ذلك بالملك المعظم وحده بل سار كذلك فى القصائد التى مدح بها بعض عظماء الرجال كصلاح الدين مثلا ، فمعظم قصائده فيه بقى غزلها ، ولم نعثر على مدحها ، فهل ذلك من فعل الرواة ؟ على أن ذلك لا يمنعنا من التساؤل عن السبب الذى دفع الرواة إلى بتر جزء من القصائد وتركه . والحق أننى لم أهتد إلى تعليل صحيح لذلك الاتجاه .

ولم يبق لنا كاملا مما مدح به ابن الساعاتى الملك المعظم سوى قصيدة واحدة بدأها بغزل تحدث فيه عن ذكريات حب عزيزة عليه إذ قال :

سقيت حيا(١) جفنىَّ يابانة الحمى وإن كان ماء ، أنت صيرته دما
ولم أبك يوما من صدودك حادثا ولكننى أبكى وصالا تقدّما
ليالى دنو ما أرقّ حواشيا وعصر شبـاب ، ما ألذّ وأنعما
أبت بعده الأيام إلاّ تلوّنا كعهدك ، واللذّات إلا تلوّما
ولولم أشم جفنى ما بت صاديا وهيهات أن أروى ، ولولا اللمى لما(٢)

ومضى فى غزله المتسم بسمة من الحزن ، والذى يبدو فيه الأسف على الماضى ، والتلهّف عليه ، ولعل الجوى الذى أحاط به ، ودفعه إلى المدح كان جوا يصبغ غزله بهذه الصبغة الآسفة ، ويشعرنا بهذا الجو الذى تنفس فيه بهذه القصيدة قوله ممهدا السبيل إلى المدح :

ولما انبرى صرف الزمان بعسفه ولم يبد إلاّ نبوة وتجهما
ركبت له عزمى ، ولستَ ببالغ مدى الأمر إلا أن تجدّ وتعزما
وآليت : لازارت جيادى وأينقى فما كذبت ، إلا المليك المعظما

فهو جوٌّ ينبىء بضيق وقع فيه الشاعر ، حقيقة أو متخيلا ، مضى يتلمس من ينقذه منه ، فالتجأ إلى المليك المعظم . وهو جو بشير الألم ، إذ فارق الشاعر مصر قريح العين ، مستهام القلب ، دائم الحنين إليها ، وذلك حيث يقول :

سمى بَدَدَاً(٣) ، ما غادر النيلَ من صدى(٤)
وأنسى ركابى قاسيونُ المقطما(٥)

(١) الحيا : المطر .
(٢) أى لما كنت صادياً . واللمى : سمرة فى الشفة .
(٣) بدداً : مفرقاً ، يريد أنه مفرق الجسم والقلب بين مصر ودمشق .
(٤) يريد أنه لم يغادر النيل لأنه عطش فى مصر .
(٥) قاسيون : جبل دمشق . أى أن قاسيون لم ينسه جبل المقطم.

على هرمَي مصر السلام من امرىء إذا ذكر الأوطان حن وسلما
وما فارقتهُ العين إلاّ قريحة ولا القلب إلا مستهاما متيما

فهو إذاً في جوّ ذكريات تنثال على خاطره ، فلا غرابة كان غزله مليئاً بهذه الذكريات . ومضى بعدئذ يمدح المعظم عيسى بالكرم ، وعزة الجانب ، وعلو الهمّة ، ورجاحة الرأى ، وكرم النسب ، ومصوّراً ذلك صورا متنوعة ، إذ قال :

قصدت من الأملاك أعزهم ندى وأسمحهم كفا ، وأمنعهم حمى
وأشرفهم نفسا ، ورأيا ، وهمّة وأكرمهم عما وخالا ، إذا انتمى
وما كان جود الدهر طبعا بمثله ولكنه من أوليه[1] تعلما
أخو السيف ، لولا بأسه قطر الندى ولولا الندى فى كفه لتضرما
يذم ، إذا ما قيل : كالليث سطوة ويهجى ، إذا يدعى من الغيث أكرما
إذا جئت[2] عيسى ابن السماحة والندى فقد جئت فى الإعجاز عيسى ابن مريما
فكم بتّ من فقر ، وكم بثّ من غنى وأنشر من ميت ، وأبرأ من عمى
فتى أفصحت عنه مخايل مجده فى مهده طفلا بمن تكلما
يريك ربيعاً كل وقت جنابه ويأبى نداه أن يكون محرما

وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن شجاعته ، بعد أن عقد الموازنه بينه وبين عيسى ابن مريم كما رأينا ، وعما كان له من أثر فى صيانة القدس وحفظها من الفرنج ، فقد ألقى عليه عبء حفظها عندما ذاع نبأ رغبة الفرنج فى الاستيلاء عليها ، والشاعر يمدحه بسداده فى الدفاع عنها قائلا :

سلوا ألسن الأعلام عن فتكاته وقبّ المذاكى ، والوشيج المقوما[3]
حمى القدس من زرق الأعادى بسمرها فما تجد الخطى[4] إلا محطما

(١) أى أن الجود ليس طبعاً فى الدهر ولكنه تعلم من أسلاف الممدوح .
(٢) بت : قطع .
(٣) المذاكى القب : الخيول العالية . والوشيج : شجر الرماح
(٤) الخطى : الرمح .

شكا أهلها داءى محول وخيفة ... فأجرى على أعطافها الماء والدما
سقى ريّها ماءُ النجيع سيوفَه(١) ... ففى غيرها لا يستجيز التيمما
فلم يبق فى ساحاتها غير مسلم ... ولولاه لم تبق الفرنجة مسلما
وما صانها دارا تحل ، وأختها ... ولكنه صان الحطيم وزمزما(٢)
إذا سل بالبيض الحنادس أشرقت ... وإن كر ثوب الصبح بالنقع أعتما
يضىء محياه ، وللركض هبوة ... فتلقاه فيها سافراً متلثما
وما جلق فى الدن إلا كغيرها ... إذا لم يحطها ظاعنا ومخيما

وبعد حديث عن دمشق ودعاء لها ، وذكر فضل المعظم على أمنها وسلامتها ، أخذ يحدثه عما يملأ صدره من آمال دفعته إلى القرب منه ، وشد الرحال إليه ، فقال :

به حسنت عندى المنى ، وبقربه ... حمدت زمانا ، كان قبل مذمما
سيملم من أسرى ، فأعرق آملا ... ندى غيره ما نال من سار مشئما(٣)
إليك قطعنا البيد بالخيل شزبا(٤) ... ضوامر قباً ، والمطى مخزّما(٥)
فيا كم جزعنا(٦) واديا كان مترعا ... بجودك ، أو ثوبا من الأرض معلما
فوالله ، ما ندرى أجئنا فيافيا ... من القفر ، أو وشى الرياض المنمنما
نسوق إليك الحمد أبيض صاديا ... يساق إليه الوفر ريان مفعما
وغيدا(٧) أبت إلا نزاعا إلى العلى ... وقد شفها حب المعالى وتيما
أبى المجد أن يبغى سوى المجد منحة ... فيسأل دينارا إليك ودرهما
إلى أن بلغنا سدة الملك ، كلما ... سألنا أمرا صلى عليك وسلما

---

(١) أى سقى الدم سيوفه حتى رويت .
(٢) أى أنه بصيانته للقدس كأنه صان البيت الحرام فى مكة .
(٣) أعرق : أتى العراق . وأشأم : أتى الشام .
(٤) شزب : جمع شازب وهو الضامر اليابس .
(٥) خزم البعير : جعل فى جانب منخره حلقة .
(٦) جزع كمنع : قطع . (٧) يريد بها قصائده .

ومما ورد إلينا من شعر مدح به المعظم عيسى قول ابن المسجف الشاعر ، وقد قدم من الشرق ، فطلب منه بهاء الدين المشرف على دار الزكاة ، أن يؤدى زكاة ما معه من التجارة — فكتب ابن المسجف إلى المعظم :

أيا ملكا ، أباد عداه قهراً   وأحيا كل منقبة وفضل
ومن هو كالمسيح اسماً وفعلا   ونصبا للحياة وجزم فعل
يكلفنى البهاء زكاة مال   حرام كله من غير حل
فجد بهبات مالكم ، فانى   أجل زكاتكم عن مال مثلى

وقد خاطبه الشاعر بالاصطلاحات النحوية الحبيبة إليه .

وممن أكثروا فى مدح المعظم وأجادوا ، ابن عنين الشاعر ، ونرى أن نفرد فصلا ، نذكر فيه الصلة بين المعظم وشاعره .

صلته بابن عنين

توثقت الصلة بين المعظم والشاعر ابن عنين ، حتى صار من أخص رجال حاشيته ، كما سبق أن ذكرنا ، وقد مضى الشاعر يصوغ لأميره عقود المدح ، وينظم فيه قلائد الثناء . ولعل من أوائل شعره فيه تلك القصيدة التى بدأها متشوقاً إلى دمشق ، متخيلا مماهدها ، وملاعب طفولته وشبابه فيها ، وربما يكون قد أرسل بهذه القصيدة إلى المعظم عيسى قبل أن يدخل دمشق ، أرسلها إليه ، كما أرسل قصيدة إلى العادل ، يستعطفه فيها ، راجيا أن يعود إلى دمشق ، ويرجح أنها من أول قصائده فيه هذا الحديث عن حنينه إلى دمشق قائلا :

أشاقك من عليا دمشق قصورها   وولدان روض النيربين[1] وحورها

---

(١) النيرب : قرية مشهورة بدمشق ... فى وسط البساتين انزه موضع رأيته ... وقد ذكرها ابن خدان وسماها النيربين ... اه ياقوت .

ومنبجس فى ظل أحوى كأنه ... ثياب عروس فاح منها عبيرها
منازل أنس ما أعفت، ولا انمحت (١) ... بعر الغوادى ، والسوارى سطورها
كأن عليها عبقرى مطارف ... من الوشى يسديها الحيا ، وينيرها
تزيد على الأيام نورا وبهجة ... وتذوى الليالى ، وهى غض حبيرها
إذا الريح مرت فى رباها كريهة ... حباها بطيب النشر فيها مرورها
خليلىّ إن البين أفنى مدامعى ... فهل لكما من عبرة أستعيرها
لقد أنسيت نفسى المسرات بعدكم ... فإن عاد عيد الوصل عاد سرورها

وبعد حديث عن لوعته ، يقول مشتاقاً إلى دمشق :

متى أنا فى ركب يؤم بنا الحمى ... خفاف ثقال بالأمانى ظهورها
حروف بأفعال لهن نواصب ... إذا آنست خفضا فرفع مسيرها
تظن ذرا لبنان ، والليل عاكف ... صديع صباح من سراها يجيرها
فيفرح محزون ، ويكبت حاسد ... وتبرد أكباد ذكى سعيرها

وقد أحسن انتقاله من هذا الغرض إلى مدح المعظم ، إذ قال :

وقدمات الآمال عندى وإنما ... إلى شرف الدين المليك نشورها

ومضى الشاعر بمدح الملك مبرزاً صفتين ، لعل ظروفه وأمله فى أن يجد الأمن فى عهده دفعته إلى أن يبرزها ، وهما صفة عدالته وإنجاحه أمل من يرجو نعمته ، فقال :

يلاقى بنى الآمال طلقا ، فبشره ... بما أملته من نجاح بشيرها
فما نعمة مشكورة لا ينيلها ... وما سيرة محمودة لا يسيرها
حلفت بما ضمت أباطح مكة ... غداة منى ، والبدن تدمى نحورها
لقد فاز بالملك المعظم أمة ... إلى عدله المشهور ردت أمورها

---

(١) أعفت : عفت . وانمحى الشىء : ذهب أثره .

أما غير هاتين الصفتين من عزمته وهيبته التى تتساقط الجوزاء إن بدا لها عابساً ، ويخشع لها الهلال ، فلا يجسر أن ينمو حتى يصير بدراً ، وكرمه الذى يمدح السحب إذا قيست به ، فقد اشتط فى تصويره ، وبالغ حتى تعدى حدود المعقول ، إذ يقول :

همام تظل الشمس من عزماته محجبة ، نقع المذاكى[1] ستورها
مهيب ؛ فلو لاقى الكواكب عابسا تساقطت الجوزا وخرّت عبورها
ولو آنست منه الأهلّة غضبة نهاها سطاه أن تتم بدورها
تشرّف أندى السحب إن قال قائل لأدنى نوال منه : هذا نظيرها

ومما يلحظ أن الشاعر ترك لنفسه العنان فى الحديث عن عواطفه نحو دمشق ، وحبه لها ، وتخيله لمعالمها ، وحنينه إلى رؤيتها ، وكان ذلك أكثر من مدحه للمعظم ، مما يرجح لدينا أن هذه القصيدة قد أنشئت لترقيق قلب المعظم عليه ، واتخاذه وسيلة إلى قلب أبيه العادل ، عله يسمح له بالعودة إلى دمشق .

وفى مدحة أخرى بدأها بغزل ، مزجه بالحديث عن الخمر ووصف الرياض ، وانتقل إلى مدح المعظم مدحا فيه قوة ، وينبئك عن شعور الشاعر بعظمة ممدوحه ، وأغلب الظن أن الشاعر أنشأ قصيدته فى مغتربه يتقرب بها إليه ، ليكون شفيعه لدى أبيه . والشاعر فى هذه القصيدة يمجد شجاعته ، ويصوره فى ميدان القتال مقداماً لا يهاب ، إذ يقول عنه :

الخائض الغمرات فى رهج الوغى والحرب حاسرة ، بغير قناع
والقوم بين مردّع[2] بدمائه ومعرّد[3] بذمائه[4] منصاع[5]

(١) المذاكى من الخيل : التى أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان .
(٢) ردعه بالشىء : لطخه به .
(٣) عرد : هرب .
(٤) الذماء : بقية النفس .
(٥) انصاع : انفتل راجعاً مسرعاً .

في موقف ضنك كريه طعمه ... حُدُسِ الفوارسُ منه في جَعجاع[1]
بمطهم نهد[2] ، كأن مروره ... سيل تدافع من متون تلاع[3]
أو لقوة شغواء[4] حقق طرفها ... من رأس مرقبة[5] طلا[6] في قاع[7]
ومهند يبدو على صفحاته ... رقراق ماء فوق نمل ساع
ومثقف إن رام مهجة فارس ... لم تحمها موضونة[8] الأدراع
فكأن محكمة السوابغ عنده ... من نسج خرقاء اليدين لكاع[9]
بجنان مضاء العزائم رأيه ... في الحرب غير الفائل[10] الضعضاع[11]
وكأنما يختال في غمراتها ... والنقع قد ستر الدجى[12] بلفاع
ليث الشرى[13] في متن[15] أجدل[14] كاسر
يسطو بصل في ثياب شجاع
خلقت أنامله لحطم مثقف ... ولفل هندى ، وحفظ يراع
ملأت مساعيه الزمان ، فدهره ... يومان : يوم قرى ، ويوم قراع

(١) الجعجاع : الموضع الضيق الخشن ومعركة الحرب .
(٢) المطهم : الضخم ، والنهد : الفرس الحسن الجميل الجسيم اللحيم المشرف .
(٣) تلاع : جمع تلعة وهو ما ارتفع من الأرض .
(٤) اللقوة الشغواء : العقاب الأنثى .
(٥) المرقبة : المكان العالي .
(٦) الطلا : ولد الظبي ساعة يولد .
(٧) القاع : أرض سهلة منبسطة قد انفرجت عنها الجبال والآكام .
(٨) الموضونة : الدرع المتقاربة النسج .
(٩) لكاع : لئيمة
(١٠) الفائل : الضعيف .
(١١) الضعضاع : الرجل بلا رأي ولا حزم .
(١٢) هكذا في الديوان ولعلها «الضحى» أو ما شابهها .
(١٣) الشرى : طريق في سلمى كثيرة الأسد .
(١٤) المتن : الظهر . (١٥) الأجدل : الصقر .

ولما كان قد أنشأ هذه القصيدة فى مغتربه تحدث فيها عن رغبته فى المودة والائتناس بقربه ، فقال :

يأيها الملك المعظم ، دعوة | من نازح قلق الحشا مرتاع
لا يأتلى لدوام ملكك داعياً | وإلى ولائك فى المحافل داعى
يهدى إليك من الثناء ملابساً | تضفو ، وتصفو من قذى الأطماع
فإلى متى أنا بالسفار أضيع الأيا | م بين الشد والإيضاع
بينا أصبح بالسلام محلة | حتى أمسى أهلها بوداع
قسما بما بين الحطيم إلى الصفا | من طائف متنسك أو ساع
إنى إلى تقبيل كفك شيق | شوقاً يغم على جوى أضلاعى

وهذه قصيدة أخرى أرسلها إليه ، يشكو الغربة ، ويثير فيه كامن الشفقة ، عساه يرجع إلى وطنه ، وكان أكثر ما مجده فى المعظم شجاعته وبسالته ، ومهد لهذا المدح بمقدمة ، كلها ثناء على الشجاعة والإقدام ، وجعل ذلك مفتتح قصيدته مكان الغزل الذى يبدأ به الشعراء قصائدهم ولم ينس أن يمدح والده العادل ، وفى هذه القصيدة يقول :

صليل المواضى واهتزاز القنا السمر | بغيرهما لا يجتنى ثمر النصر
وصبر الفتى فى المأزق الضنك فادح | ولكنه أهدى طريق إلى الفخر
وتحت ظلام النقع تشرق أوجه الـ | ـمنا وجمع المجد فى فرقة الوفر
وما استعبد الأحرار كالعفو إن جنى | جهول ، وفضل الصدر فى سعة الصدر
ومن لم تنوه باسمه الحرب لم يزل | وإن كرمت آباؤه خامل الذكر
إذا غشى الحرب العوان تمخضت | وقد اقحمت عن فتكة فى العدا بكر
خلال علاً ، لولا المعظم أعجزت | طرائقها الأملاك بعد أبى بكر
هلال وبدر أشرقا ، فأبيهالنا | إلى الله إبقاء الهلال مع البدر

مليك إذا ما جال فى متن ضامر ... ليوم وغى أبصرت بحراً على بحر
عليم بتصريف القنا ، فرماحه ... مواقعها بين الترائب والنحر
وما مشبل[1] من أسد خفان[2] باسل ... يذود الردى عن أم شبلين فى حذر
هزبر إذا اجتاز الأسود بغيله ... فأشجعها خاف الخطى خافت الزأر
بواد تحاماه الأسود مهابة ... ونكب عن مسراه والجة السفر
بأعظم منه فى القلوب مهابة ... وإن غض منها بالطلاقة والبشر
فلا وزر من بأسه لعداته ... ولو وقلت[3] كالعصم[4] فى شامخ وعر

ثم يجنح ابن عنين إلى المبالغة ، ولعلها كانت مما يحبه الممدوحون يومئذ ، وذلك حين يقول :

ولو حاول المريخ فى الأفق منعها ... لخيم ما بين النعائم والغفر[5]

وبعدئذ مضى إلى هدفه من الاستعطاف ، وتصوير نفسه غريبا شريدا ، وقد أجاد فى هذا التصوير ، إذ قال :

فيأيها الملك المعظم ، دعوة ... إليك لمطوى الضلوع على جمر
غريب إذا ماحل مصرا أبى له ... وشيك النوى إلا ارتحالا إلى مصر
له غنية عن غيركم من قناعة ... وأما إلى معروفكم فأخو فقر
فحتام لا أنفك فى ظهر سبسب[6] ... أهجر[7] ، أو فى بطن دوية[8] قفر

---

(١) المشبل : الأسد معه أشباله .
(٢) خفان : مأسدة قرب الكوفة .
(٣) وقل فى الجبل : صعد .
(٤) الأعصم من الظباء : مافى ذراعيه أو فى أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر .
(٥) النعائم والغفر : من منازل القمر .
(٦) السبسب : المفازة .
(٧) هجر : سار فى الهاجرة وهى نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر .
(٨) الدوية : الفلاة .

أشقق قلب الشرق ، حتى كأنني أفتش في سودائه عن سنا الفجر
ويقبح بي أن ارتجي من سواكم نوالا ، وأن يعزى إلى غيركم شكري

ولما عاد إلى دمشق مضى على منهجه يمدح المعظم ، ويصوغ في الثناء عليه قريضه . وكان بلاؤه في معركة دمياط مثاراً لشاعرية ابن عنين ، فمضى يصف المعركة ، مزهوا بالنصر فيها ، مثنيا على أحد أبطالها ، وافتتحها بالغرض ، غير متلبث عند غزل أو غيره ، مفتخرا قائلا :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا إذا جهلت آباؤنا ، والقنا اللدنا

ثم يصف الجيش والمعركة ، ويقول :

غداة لقينا دون دمياط جحفلا من الروم ، لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا ، وعزما ، وهمة ودينا ، وإن كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الصليب ، فأقبلت جموع كأن الموج كان لهم سفنا
عليهم من الماذى (١) كل مفاضة (٢) دلاص (٣) ، كقرن الشمس قد أحكمت وضنا (٤)
وأطمعهم فينا غرور ، فأرقلوا (٥) إلينا سراعا بالجياد ، وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم (٦) بأطرافها ، حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبرا جميلا ، ودافعوا طويلا ، فما أجدى دفاع ، ولا أغنى

---

(١) الماذى : الدرع اللينة السهلة .
(٢) المفاضة : الدرع الواسعة .
(٣) درع دلاص : ملساء لينة .
(٤) وضن الشيء : ثنى بعضه على بعض ، ونضده .
(٥) أرقل : أسرع .
(٦) التناوش : التناول .

ويسجل الشاعر المعاملة الحسنة التي عومل بها الصليبيون ، ويوازن بين هذه المعاملة ، وبين ما كان ينتظر أن يعاملنا به الصليبيون ، لو أنهم كانوا هم المنتصرين ، ويقول :

اقوا الموت من زرق الأسنة أحمراً فألقوا بأيديهم إلينا ، فأحسنا
وما برح الإحسان منا سجية توارثها عن صيد[1] آبائنا الأبنا
منحنا - بقاياهم حياة جديدة فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكوا لم يأتلوا[2] في دمائنا ولوغا، ولكنا ملكنا، فأسجحنا[3]
وقد جربونا قبلها في وقائع تعلم غمر[4] القوم منا بها الطعنا
فكم من مليك قد شددنا إساره وكم من أسير من شقا الأسر أطلقنا
أسود وغى ، لولا قراع سيوفنا لما ركبوا قيدا ، ولا سكنوا سجنا
وكم يوم حر ما لقينا هجيره بستر ، وقر ما طلبنا له كنا
فإن نعيم الملك في شظف الشقا ينال ؛ وحلو العز من مره يجنى

والشاعر كما ترى مزهو بالنصر ، فخور به ، وإذا كان قد أشاد بما أبداه العدو من ضروب الصبر ، وحسن الدفاع ، وما في هذا الجيش من ملوك ، فإن في ذلك مجال فخر لجيش المسلمين ، إذ ينتصر على مثل هذا الجيش المرموم ، المحصن بالدروع.

وانتقل بعدئذ إلى مدح المعظم عيسى ، فقال :

يسير بنا من آل أيوب ماجد أبى عزمه أن يستقر به مغنى
كريم الثنا ، عار من العار ، باسل جميل المحيا ، كامل الحسن والحسنى

---

(١) الصيد : جمع أصيد، وهو المائل العنق. كناية عن الكبر والأنفة.
(٢) لم يأتلوا : لم يقصروا
(٣) الإسجاح : حسن العفو.
(٤) الغمر من لم يجرب الأمور.

لعمرك ، ما آيات عيسى خفية … هي الشمس للأقصى : سناء ، وللأدنى
سرى نحو دمياط بكل سميذع … نجيب ، يرى ورد الوغى المورد الأهنا
فأجلى علوج الروم عنها ، وأفرحت … قلوب رجال حالفت بعدها الحزنا
وطهرها من رجسهم بحسامه … همام يرى كسب الثنا المغنم الأسنى
مآثر مجد ، خلدتها سيوفه … مواقعها فيها ، فإن عاودوا عدنا

وهكذا ختم القصيدة مهدداً متوعدا ، كما بدأها مفتخرا مزهوا .

وسجل في قصيدة أخرى بلاءه في معركة دمياط ، وما قام به من جهاد الفرنج عند القيمون ، حيث أرسله أبوه العادل ، كي يشغل الفرنج عن دمياط ، وهناك ظفر بهم المعظم وهزمهم ، وأشاد بمدة لقاءات للمعظم نال فيها من الفرنج وانتصر عليهم ، وابن عنين يسجل تلك المآثر في هذه القصيدة التي يقول فيها :

ومستخبر عنا ، وما من جهالة … كشفت الغطا عنه ، فزال ارتيابه
وأذكرته أيام دمياط بيننا … وبين العدا ، والموت تهوى عقابه
وجيشاً خلطناه ، رحاب صدوره … بجيش من الأعداء غلب[1] رقابه
وقد شرقت زرق الأسنة بالدما … وأنكر حد المشرفي قرابه
وعرد إلا كل ذمر[2] مغامس[3] … ونكب إلا كل زاك نصابه
تركناهم في البر والبحر لحمة … تقاسمهم حيتانه وذئابه
ويوماً على القيمون[4] ماجت متونه … بزرق أعاديه ، وغصت شعابه
نثرنا على الوادي رءوساً أعزة … لكل أخي بأس منيع جنابه
ورضنا ملوك الأرض بالبيض والقنا … فذل لنا من كل قطر صعابه

(١) غلب كفرح : غلظ عنقه .
(٢) الذمر : الشجاع .
(٣) المغامس : المغامر .
(٤) القيمون : حصن قرب الرملة .

فكم أمرد خطَّ الحسام عذاره ... وكم أشيب كان النجيع خضابه
وكم قد نزلنا ثغر قوم أعزة ... فلم نرتحل حتى تداعى خرابه
وكم يوم هول ضاق فيه مجالنا ... صبرنا له ، والموت يحرق نابه
يسير بنا تحت اللواء ممدح ... كريم السجايا طاهرات ثيابه
ففرج ضيق الكفر عنا طعانه ... وشتت شمل الكفر عنا ضرابه
وأصبح وجه الدين بعد عبوسه ... طليقاً ، ولولاه لطال اكتئابه
جهاد لوجه الله فى نصر دينه ... وفى طاعة الله العزيز احتسابه
حميت حمى الإسلام فالدين آمن ... تذاد أقاصيه ، ويخشى جنابه
وما بغيتى إلا بقاؤك سالماً ... لذا الدين ، لا مال جزيل أثابه

ومما عرضناه يتبين أن ابن عنين أجاد فى أكثر ما مدح به الملك المعظم ، ويظهر أن أكثر ما استرعى نظره من بين صفات المعظم هو شجاعته فى ميدان القتال ، فأخذ حيناً يصور هذه الشجاعة ، ويضرب بعض المثل التى تبرزها أمام أعيننا واضحة مجسمة ، وحينا يشيد بالمعارك التى بدت فيها هذه الشجاعة ، وأبلت خير بلاء ، عاد على الإسلام باليمن والبركات .

وأشاد ابن عنين ببعض صفات المعظم الأخرى ، كالجود ، ونضج الرأى ، وإن كان ذلك قليلا .

وكان المعظم يثق فى شاعرية ابن عنين ، ويراه جديراً أن يوفى الموضوع الذى يتكلم فيه حقه ، فكان يكل إليه أحياناً أن يصور منظراً ملك عليه نفسه ، وكأنما يريد تسجيل هذا المنظر حتى لا تضيع عليه ذكراه .

حضر مرة مجلس الملك المعظم بدمشق ، ومملوك خاص قائم يظلله من الشمس ، فقال لابن عنين : قل فى هذا شيئاً ، فقال :

وغصن بان قلوب الناس قاطبة ... منه على خطر ، إن ماس أو خطرا

بدا ، وأبدى برؤياه لنا قمرا فيه من الحسن ما للعقل قد قمرا[1]
هو الغزال ولكنى عجبت له من الغزالة إن زارته ، أن نفرا
وظل مستتراً منها ومحتجباً عنها ، ونورهما فى الناس قد ظهرا
فقلت : حسبك ، لا تخش اجتماعكما فالشمس لا ينبغى أن تدرك القمرا

كما كان ولده الناصر داود يثق فى هذه الشاعرية ، ورأى فيها خير ما يستطيع أن يعبر عن آلامه يوم توفى له أخ صغير ، ولعل الحزن ألجمه كما ألجم أباه المعظم ، فلم يستطيعا رثاء هذا الصغير ، فعبر عن وجدهما ابن عنين ، عندما قال على لسان الناصر داود ، معبراً عن عجزه إزاء أحداث الدهر التى لا يستطيع دفعها بقوته وأسرته .

قد كنت أرجو أن تكون مقاسمى فى خفض عيش ، أو لقاء أعادى
وأراك فى يومى وغى ومسرة قلب الخميس ، وصدر أهل النادى
تجرى القضاء بضد ما أملته فيه ، وأرهف حده لمنادى
خانتنى الأيام فيك فقربت يوم الردى من ليلة الميلاد
ورمتنى الأقدار منك بلوعة باتت تؤجج فى صميم فؤادى
لهفى عليك لو ان لهفاً نافع أو نافع حر الفؤاد الصادى
قد أسعدتنى بعد فقدك أدمع ذرف ، وخام[2] الصبر عن إسعادى
وعدمت بعدك لذة الدنيا ، فقد أنسيتها ، حتى نسيت رقادى
أبقيت فى كبدى عليك حزازة تبدو لأهل الحشر يوم معادى
فسقى ضريحك كل دان مسبل متواصل الإبراق والإرعاد
حتى ترى عرصات قبرك روضة موشية كوشائع الأبراد

(١) قمره : غلبه .
(٢) خام عنه : نكص وجبن . وأسعده : أعانه .

فلقد مضيت ، وما كسبت خطيئة　　وتركت دار بلية وفساد
وسكنت دارا ملكها لك خالد　　وتركت دارا ملكها لنفاد

وقد أجاد ابن عنين فى التعبير عن شعور الأخ الواجد عند فقدان أخ كان يؤمل أن يشد به عضده .

اشتدت الصلة بين ابن عنين ومليكه المعظم ، وحفظ لنا شعره حنيناً إلى الملك المعظم ، عند ما زار مصر ، وكان شاعره فى دمشق ، فكتب إليه الشاعر :

تحية مشتاق بعيد مزاره　　أبى شوقه أن يستقر قراره
إذا نفحة مرت به قاهرية　　ذكت فى الحشا بين الجوانح ناره
وما شام من أعلى المقطم جفنه　　سنا بارق إلا توالت قطاره[1]
أحن إلى مصر ، ويا ليت أن لى　　إذا ذكرت مصر جناحا أعاره
فآوى إلى ظل ظليل ، ونائل　　جزيل ، وملك حالف العز جاره

وحفظ لنا شعره كثيراً من المداعبات التى كانت تجرى بينهما : كتب إليه مرة ، ولعله قد ساءه أن يتقدم عليه غيره عند الملك المعظم ، استخدم اصطلاحات النحو ، وكان المعظم من رجاله المحبين لدراسته :

كأنى من أخبار إنّ ، ولم يجز　　له أحد فى النحو أن يتقدما
عسى حرف جر من نداك يجرنى　　إليك ، فأضحى من زمانى مسلما

كما استخدم هذه الاصطلاحات فى الرسالة التى كتبها إلى المعظم ، عند ما مرض الشاعر ، وقد أدرك مغزاها ، وسبق أن أوردنا هذه الرسالة .

وكتب إليه مرة وقد كثرت عليه الضيوف :

تبارك الله ، أعطى الناس ما سألوا　　صفواً ، وكال لهم بالزائد الوافى
فالحمد لله شكراً ، إننى رجل　　ما بارك الله لى فى غير أضياف

---

(١) قطار : جمع قطرة .

وأنشده الملك المعظم هذا البيت لغزاً فى الإسلام :

أى شىء تراه حقاً يقيناً ... حالما اعوج فى الزمان استقاما

فأجابه بديها ، وصرح بالجواب :

أيها السيد الذى جعل الشر ... ك حطاما ، وشيد الإسلاما
قد أتاك الجواب ، لاشك فيه ... فاتخــذنى للمشكلات إماما

وحضر الشعراء عند الملك المعظم ، وفيهم ابن عنين ، فقال لهم : لا بد أن تهجونى فى وجهى ، فقبلوا الأرض ، واستغفروا من ذلك ، فقال :لا بد من ذلك. وألح عليهم ، فتقدم ابن عنين وقال :

نحن قوم ما ذكرنا لامرىء ... قط إلا واشتهى ألا يرانا
شعرنا مثل الخرا ، ذقت الخرا ... صفع الله به أصــل لحانا

ولما مات المعظم بكاه ابن عنين أحـر بكاء ، ورثاه رثاء قويا كما ســنرى فى فصل قادم ، وشعر كأنه صار يتيما فقد أباه . وقد عبر عن هذا الشعور عند ما سأله رجل من أهل دمشق شفاعة إلى الملك العزيز عثمان ، بعد وفاة الملك المعظم أخيه ، فكتب إليه :

عطفاً علينا يا عزيز ، فإننا ... بعــد المعظم عندكم أيتام
ولأنت خير الـكافلين ، فلا تدع ... أيتامـكم يا بن الـكرام تضام

ولم يرق ابن عنين ما آل إليه أمر دمشق بعد وفاة الملك المعظم ، فقد فتحها الـكامل محمد ، وأعطاها أخاه الأشرف موسى ، فقال ابن عنين :

وكنا نرجى بعد عيسى محمدا ... لينقذنا من لاعج الضر والبلوى
فأوقعنا فى تيه موسى ، فـكلنا ... حيارى ، ولا من لدينا ولا سلوى

ولما بلغ الأشرف ما قال فيه ابن عنين ، قال : إذا لم يكن عندى منٌ ولاسلوى فمند من ؟ وأمر بقطع لسانه ، فحلف ابن عنين أنه ما قال هذا ، فقال الأشرف : ما أفلت من لسانه أحد ، ولا بد من قطعه . فهرب ابن عنين ، وسكت الأشرف عنه .

وهكذا لم يستفد ابن عنين بالإقامة فى دمشق ، بعد موت مليكه المعظم .

وفاتـــه

كان المعظم قد جهز الجند إلى نابلس ، ليكون بالمرصاد للامبراطور الصليبي فردريك الثانى ، الذى كان يعمل على عقد معاهدة مع الملك الكامل يأخذ بمقتضاها بيت المقدس ، ولم يكن المعظم راضياً عن مثل هذه المعاهدة ، وأعد الجند لإحباط تنفيذ كل معاهدة من هذا القبيل ، ولكن المرض ألم به ، واشتدت عليـــه (الدوسنطاريا) ، وأضعفته عن النهوض ، وبدأ الموت يطل من عينيـه ، قالوا : ولم يترك المعظم صلاة إلا أداها ، حتى لقد كان يتيمم لكل صلاة قبل وفاته ، فلما لم يستطع النهوض للصلاة صلى بالإيماء . وكان شديد الثقة فى أنه سيلقى عند الله خير المثوبة ، على ما قدم من جهاد فى سبيله ، فكان يقول : «صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى منخرى عبد أبدا ، وكم فى منخرى من تراب فى سبيل الله » .

وفى يوم الجمعة أول يوم من ذى الحجة سنة ٦٢٤هـ (١٢ نوفبر سنة ١٢٢٧م) توفى المعظم عيسى فى دمشق . وأقيم له العزاء ثلاثة أيام فيها ، واستقبلت رعيتـه نبـــأ وفاته بألم بالغ ، واشترك فى الحزن عليه الرجال والنساء ، كما سبق أن ذكرنا .

ورثاه الشعراء ، فكان من ذلك ما قاله فيه بعض أصحابه ، وهو محب الدين البغدادى :

لئن غودرت تلك المحاسن فى الثرى بوَال ، فما وجدى عليك ببال
ومذ غبت عنى ما ظفرت بصاحب أخى ثقة إلا خطرت ببالى

وقول بعضهم :

عيسى كعيسى كان إذ شاهدته يحيى نداه ميت فقر مدقع
دفنوه فى الأرض التى شرفت به فعجبت كيف إلى السما لم يرفع

ورثاه شاعره ابن عنين بقصيدة باكية ، مزج فيها آلامه الشخصية ، بآلام شعبه ، وآلام الأمة الإسلامية التى كانت ترى فيه بطلا من أبطال الإسلام المدافعين عنه ، والذين كانوا شجى فى صدر الصليبيين ، وسجل فيها ما كان معجباً به من صفات المعظم وسجاياه ، وها هو ذا يبدأ قصيدته بدءاً فيه ألم وحيرة ، إذ يقول :

يا دهر ، ويحك ! ما عدا مما بدا ؟ أرسلت سهم الحادثات ، فأقصدا[1]
أغمدت سيفاً مرهفاً شفراته قد كان فى ذات الإله مجردا
فافعل بجهدك ما تشاء ، فإننى بعد المعظم لا أبالى بالردى
ما خلته يفنى ، وأبقى بعده يا بؤس عيشى ، ما أمر وأنكدا
لهفى على بدر تغيب فى ثرى رمس ، وبحر فى ضريح ألحدا
أبقيت لى يادهر بعد فراقه كبدا مقرحة ، وجفنا أرمدا
وجوى يؤجج بين أثناء الحشا ناراً تزايد بالدموع توقدا
لو كان خلق بالمكارم والتقى يبقى لكان مدى الزمان مخلدا

---

(١) أقصد السهم : أصاب ، فقتل مكانه .

أو كان شق الجيب ينقذ من ردى … شقت عليك بنو أبيك الأكبدا
أو كان يغنى عنك دفع بالقنا الخـ … ـطى غادرت الوشيج[١] مقصدا[٢]
ولقد تمنت أن تكون فوارس … من آل أيوب الكرام لك الفدا
أبكيت حتى نثرة[٣] وطمرة[٤] … وحزنت حتى ذابلا[٥] ومهندا[٦]
كم ليلة قد بت فيها لا ترى … إلا ظهور الأعوجية[٧] مرقدا
تحمى حمى الإسلام منتصراً له … بعزائم تستقرب المستبعدا
ولرب ملهوف دعاه لحادث … جلل فكان جوابه قبل الصدى
ولطالما شيمت بوارق كفه … فهمت سحائبها علينا عسجدا
ما ضل نمر عن محجة قصده … إلا وكان له إليها مرشدا
يامالكا من بعد فقدى وجهه … جار الزمان علىّ بعدك واعتدى
أعزز على بأن يزورك راثيا … من كان زارك بالمدائح منشدا
كم مورد ضنك وردت ، وطعمه … مر ، وقد عاف الكماة الموردا
وعزيز قوم مترف سربلته … ذلا ، وكان الطاغى المتمردا
أركبته حلقات أدهم[٨] ، قصرت … منه الخطا من بعد أشقر أجردا[٩]
لولا دفاعك بالصوارم والقنا … عن حوزة الإسلام عاد كما بدا
وديار مصر لو ونت عزماته … عن نصرها لتمكنت فيها العدا

(١) الوشيج : شجر الرماح .
(٢) مقصدا : مكسراً .
(٣) النثرة : الدرع السلسة الملبس .
(٤) طمرة : فرس .
(٥) الذابل : القنا الرقيق .
(٦) المهند : السيف .
(٧) الأعوجية : الخيل .
(٨) يريد بالأدهم القيد
(٩) الأشقر الأجرد : الجواد .

ولأمست البيض الحرائر أسهما … فيهـا سبـايا ، والموالى أعبدا
ولأصبحت خيل الفرنج مغيرة … تجتاب مابين البقيع إلى كُدى [١]
وبثغر دمياط ، فـكم من بيعـة … عبد الصليب بها ، وكانت مسجدا
أنقذتهـا من خطه الخسف التى … كانت أحلتها الحضيض الأوهدا
أجليت ليل الـكفر عنها ، فانطوى … وأنرت فى عرصاتها فجر الهدى
ولقــد شهدتك يوم قيسارية … والشمس قد نسج القتام لها ردا
والـكفر معتصم بسور مشرف الأ … براج أحكم بالصفيح [٢] وشيدا
فجعلت عاليهـا مكان أساسها … وألنت للأخشاب فيها الجلمدا [٣]

ثم اتجه إلى ولده الملك الناصر داود يشد من أزره ، ويجد فيه العوض من أبيه ، فيقول :

قل للأعادى : إن فقدنا سيدا … يحمى الذمار ، فقد رزقنا سيدا
النـاصر الملك الذى أضحى برو … ح القدس فى كل الأمور مؤيدا
أعلى الملوك محلة ، وأسـدّهم … رأياً ، وأشجعهم ، وأطولهم يدا
ماضى العزيمة ، لا يرى فى رأيه … يوم الـكريهة حائراً مترددا
يقظ يكاد يريه ثاقب فـكره … فى يومه ما سوف يأتيه غدا

والحق أن قصيدة ابن عنين التى رثى بها المعظم ، قوية محكمة النسج ، لا يكاد النقد يجد فيها مأخذا ينفذ به إليها ، وذلك إن دل فإنما يدل على صدق فى إحساس الشاعر ، وعاطفة قوية ملـكت قلبه ، وتقدير لهذا المليك الذى يرثيه ، وقد صور عواطفه إزاء فقده تصويراً يشعرنا بما أحس به الشاعر من ألم ولوعة لفقد مليكه .

---

(١) البقيع : مقبرة ، وكدى : موضع بأسفل مكة .
(٢) الصفيح : حجارة عراض رقاق.
(٣) الجلمد : الصخر .

وكانت الصفة البارزة التى استولت على نفس الشاعر ، فبذل كل جهده فى تصويرها ، هى بطولته فى الدفاع عن الإسلام دفاعاً مجيدا ، فتخيل البطل سيفاً مرهف الشفرات يجرد فى ذات الله ، وتصور وسائل الجهاد من جواد قوى كان يمتطيه ، ودرع كان يلبسه ، وقناة كان يضرب بها ، وسيف كان يحارب به — حزينة على فراقه ، باكية على فقده .

وسجل ما سجله له مؤرخوه ؛ من أنه وهو فى ميدان القتال ما كان يبيت إلا متأهباً للحرب ، « وزرديته مخدته » .

وأشاد ابن عنين بما بذله المعظم من جهد فى المعارك التى التقى فيها بالفرنج ، ففى دمياط كان له أثر حميد فى إنقاذها من خطة الخسف التى تردت فيها عندما تملكها الفرنج ، وفى قيسارية حطم المعظم بنيانها ، وجعل عاليه أسافله ، وصور الشاعر عودة الإسلام إلى دمياط بالنور يعود إلى رحابها ، بعد أن طوى ليل الكفر منجاباً عنها .

ولم ينس ابن عنين أن يسجل تقواه وكرمه ومروءته فى إجابة المضطر الملهوف.

ويبدو من القصيدة أن الشاعر كان ينغمس حينا فى عواطفه الشخصية ، فيبكى المعظم من ناحية الخسارة التى منى بها بفقده ، ثم يتجه مصوراً ما أصيب به المسلمون من خسارة ، ثم لا يلبث أن تطغى عليه مرة أخرى عواطفه الشخصية ، فعواطفه الجماعية ، وهكذا كان يتنقل بين هاتين العاطفتين .

ورثى المعظم كذلك على رءوس الأشهاد ، فى جامع دمشق المؤرخ الواعظ سبط ابن الجوزى ، وقد غلبه البكاء والتأثر عندما أخذ يرثيه ، ولم يرد إلينا شىء من هذا الرثاء .

وبعد ، فقد غلبت صفة الشجاعة فيه ما عداها من الصفات ، فكانت حياطته للدين ، وجهاده للفرنج أظهر ما مدح به ، وما سجل فيه من رثاه ، أما غيرها من

الصفات الأخرى ، كديمقراطيته ، وعلمه ، وحسن صحبته ، فمما لم يسجله الشعراء ، وإن لمحوا إليه أحياناً ، ومما رأوه ثانوياً فى عصر كان الأمل الأول فيه المسلمين أن يجدوا فى ملوكهم أبطالا يذودون عن حماهم ، ويردون الصليبيين ، ويحوطونهم بالأمن فى أوطانهم ، ولعل هذا هو السبب الذى لم يشد فيه الشعراء بباقى صفاته اللامعة ، وربما أشاد بعض الشعراء بها ، ولكن لم يصل إلينا شعره ؛ لأنه لم يرد إلينا جميع ما قاله الشعراء فى المعظم .

وإذا كان الشعر لم يصل إلينا ، فإن المؤرخين قد أعجبوا به ، وسجلوا هذا الإعجاب فى كتبهم ، وسوف نعرض هنا بعض ما كتبوه .

من أقـــوال مؤرخيه

قال عنه سبط ابن الجوزى فى كتابه مرآة الزمان (٨ : ٤٢٥) : « العالم ، الفقيه ، الفاضل ، المجاهد فى سبيل الله ، الغازى ، النحوى ، اللغوى . . . وما كان يقيم وزن الشعر فى بعض الأوقات ، فكنت أقول له : فيك ضرب من النبوة : وما علمناه الشعر . وكان شجاعا مقداما ، كثير الحياء ، متواضعاً ، مليح الصورة ، ضحوكا ، غيوراً ، جواداً ، حسن العشرة ، محافظاً على الصحبة والمودة . . محسنا إلى الرعية ، ذابا عن حريمهم ، رفيقا بهم ، يعرف صغيرهم وكبيرهم » .

ونقل فى كتابه عن الملك الظاهر صاحب حلب أنه قال له : والله هو واسطة العقد ، وعين القلادة . وعن الملك الكامل صاحب مصر أنه قال له أيضاً : ومن حفظ على البلاد وأحيانى بعد الموت غيره ؟ يشير إلى حادثة ابن المشطوب . وقد شرحناها فيما مضى .

وقال محمد بن سالم بن واصل صاحب مفرج الكروب (٢ : ٢٤٦) : « كان ملكا جليلا شجاعا ، شديد البأس ، مهيبا ، . . عالما ، فاضلا ، متقنا فى الفقه والنحو

وغير ذلك . . ولما وقف على تاريخ بغداد الذى صنفه الشيخ الحافظ أبو بكر أحمد بن ثابت ، وفيه مطاعن على أبي حنيفة رواها الخطيب عن جماعة من المحدثين ، رد عليه الملك المعظم فى ذلك ، وصنف كتابا سماه: السهم المصيب فى الرد على الخطيب. وأجاب المعظم فى هذا الكتاب عن كل مطعن ذكره بأحسن جواب ، وذكر فيه مباحث جليلة دقيقة فى الفقه والنحو ، ووقفت على هذا الكتاب بالقدس الشريف وطالعته جميعه ، ووجدته فى غاية الحسن . ولما قدم الملك المعظم القدس سنة ٦٢٣هـ جلس خارج الصخرة الشريفة ، واستدعى جماعة الفقهاء . . وباحثهم فى مسائل فقهية ونحوية » .

وقال الذهبي فى تاريخ الإسلام (حوادث سنة ٦٢٤ ص ٨٢) : « ومرض الملك المعظم ، فتصدق وأخرج المسجونين ، وأعطى الأشراف ألف غرارة ، وتصدق على الفقهاء والصوفية وغيرهم ثمانين ألفا وخمسمائة غرارة ، وحلف من بالحضرة لولده الناصر ، واشترى ابن رويدان حصانا أصفر للمعظم بألف دينار مصرية ، وأحضرها ، فأمر بالتصدق بها بالمصلى ، فازدحم الخلق لذلك . . ثم مات . ورمى ابنه الكلوتة والمماليك ولطموا فى الأسواق ، وقرأ النجيب فى العزاء : «ياداود ، إنا جعلناك خليفة فى الأرض » ؛ فضج الناس » .

وقال النويرى فى نهاية الأرب (٢٧ : ٣٠) : « كان شجاعا ، مقداما ، كثير الحياء ، متواضعاً ، حسن الصورة ، ضحوكا ، غيوراً ، جواداً ، حسن العشرة ، محافظاً على الصحبة والمودة ، ولا يقطع الاشتغال بالقرآن ، والجامع الكبير ، وسيبويه . وكان يركب فى كل يوم غالباً ، فإذا نزل مد السماط ، فإذا أكل الناس انتصب لقضاء الحوائج إلى الظهر » .

وقال أحمد بن محمد الفيومى فى كتابه نثر الجمان (٢ : ٤ ب) : كان فقيها ، عالما ، فاضلا ، جمع بين فضيلتى السيف والقلم ، ورياستى العلم والعلم ، وجاهد فى

سبيل الله تعالى . وكان قليل التكلف جدا فى غالب الأوقات ، لا يركب بالسناجق السلطانية ، ويركب وعلى رأسه (كلوتة) سوداء ، بلا شاش ، ويخترق الأسواق من غير أن يطرق بين يديه ، كما جرت عادة الملوك ، ولما كثر هذا منه ، صار الإنسان إذا فعل أمرا لا يتكلف له ، يقال : قد فعله بالمعظمى » .

وقال الصفدى فى كتابه الوافى بالوفيات (جـ ه القسم الثالث ص ١١٤) : « كان عديم الالتفات إلى ما يرغب فيه الملوك من الالتفات إلى الأبهة والعظمة » .

وقال ابن خلكان فى وفيات الأعيان (١ : ٣٩٦) : كان عالى الهمة ، حازما ، شجاعا ، مهيبا ، فاضلا ، جامعاً شمل أرباب الفضائل ، محبا لهم ، . . وكان المعظم يحب الأدب كثيراً ، ومدحه جماعة من الشعراء المجيدين فأحسنوا فى مدحه ، وكانت له رغبة فى فن الأدب . . وقيل : إنه كان قد شرط لمن يحفظ المفصل للزمخشرى مائة دينار وخلعة . . ولم أسمع مثل هذه المنقبة لغيره » .

وقال صاحب النجوم الزاهرة (٦ : ٢٦٨) : « أطلق أبو المظفر عنان القلم فى ميدان محاسنه ، حتى إنه ساق ترجمته فى عدة أوراق فى مرآة الزمان . قلت : ويحق له ذلك ، فإن المعظم كان فى غاية ما يكون من الكمال فى عدة علوم وفنون ، وهو رجل بنى أيوب وعالمهم بلا مدافعة ، ومحاسنه أشهر من أن تذكر » .

وقال ابن الأثير فى كامله (١٢ : ٢١٨) : « ونفق العلم فى سوقه ، وقصده العلماء من الآفاق ، فأكرمهم ، وأجرى عليهم الجرايات الوافرة ، وقربهم ، وكان يجالسهم ، ويستفيد منهم ، ويفيدهم ، وكان يرجع إلى علم وصبر على سماع ما يكره ، لم يسمع أحد ممن يصحبه منه كلمة تسوءه ، وكان حسن الاعتقاد » .

وقال أبو شامة المقدسى فى ذيل الروضتين (ص ١٥٢) : « وبالجملة تفرد من بين الملوك بالجمع بين مواظبة الغزو ، والاشتغال بأنواع العلوم ، والحج إلى الحرمين

بنفسه ، وإعانة غيره عليه ، وكان عديم الالتفات إلى ما يرغب فيه الملوك : من الأبهة والتعظيم والمدح وغير ذلك » .

وقال ابن كثير فى البداية والنهاية (١٣ : ١٢١) : « كان يحب العلماء ويكرمهم ويجتهد فى متابعة الخير . . وأوصى عند وفاته ألا يكفن إلا فى البياض ، وأن يلحد له ، ويدفن فى الصحراء ، ولا يبنى عليه ، وكان يقول : واقعة دمياط أدخرها عند الله تعالى ، وأرجو أن يرحمنى بها — يعنى أنه أبلى بها بلاء حسنا — رحمه الله تعالى . وقد جمع بين الشجاعة ، والبراعة ، والعلم ، ومحبة أهله . وكان يجىء فى كل جمعة إلى تربة والده ، فيجلس قليلا ، ثم إذا ذكر المؤذنون ينطلق إلى تربة عمه صلاح الدين ، فيصلى فيها الجمعة ، وكان قليل التعاظم ، يركب فى بعض الأحيان وحده ، ثم يلحقه بعض غلمانه » .

وقال ابن العماد الحنبلى فى شذرات الذهب (٥ : ١١٥) : « برع فى الفقه ، وكان عديم الالتفات إلى النواميس وأبهة الملك ، ويركب وحده مراراً ، ثم تتلاحق به مماليكه . . وكان من النجباء الأذكياء . . ومرض ابن عنين ، فكتب إليه :

انظر إلى بعين مولى ، لم يزل   يولى الندى ، وتلاف قبل تلاف
أنا كالذى : أحتاج ما تحتاجه   فاغنم ثوابى والثناء الوافى

فجاء إليه فعاده ، ومعه صرة فيها ثلاثمائة دينار ، وقال : هذه الصلة ، وأنا العائد . وهذه لو وقعت لأكابر النحاة لاستحسنت منه ، فكيف هذا الملك» .

ولكى يستوفى البحث العلمى ما يجب أن يلتزم فيه من صدق العرض ينبغى أن نشير إلى ما سجله بعض المؤرخين من أنه أخذ بنصيب من اللهو فى شبابه ؛ وإلى ما ذكره صاحب شذرات الذهب من أن المعظم كان فيه خير وشر كثير ، من غير أن يفصل ألوان هذا الشر الكثير ، ولعل ابن العماد الحنبلى أخذ عليه ما لا يوافق

مذهبه من تشجيعه لدراسة الفلسفة ، وتعصبه لمذهب أبي حنيفة ، وما ساء ساكني بيت المقدس عندما دفعته الضرورة إلى تخريبه ، ومن حبه للنبيذ ، ورغبته فى شربه ، وقد تحدثنا عن ذلك وبينا وجه الرأى فيه ، فيما مضى . وقد يكون من ألوان هذا الشر استخدامه لابن عنين ، وماضيه فى الهجاء قد أخاف الناس منه ، وكون ضده رأيا عاما أحس به الشاعر ، ودفعه إلى طلب الإقالة من الديوان .

ولسنا مع ذلك نبرىء المعظم من الهنات والهفوات ، ولكننا نراه برغم ماقد يكون فيه من ذلك مثالا رائعاً لملك ديمقراطى عالم شجع العلماء ووقف نفسه على الدفاع عن الإسلام ، وحياطته فى عصر كان الأعداء يتربصون بالإسلام ريب المنون .

ذريتـــه

ترك الملك المعظم بعده من البنين أربعة ، ومن البنات تسعا ، وقيل إحدى عشرة . أما بنوه فقد مات أحدهم صغيراً بعده بقليل ، والباقون هم الملك الناصر داود ، وهو أكبرهم ، ولد سنة ٦٠٣ ﻫ ، والملك المغيث عبد العزيز ، والملك القاهر عبد الملك . وكان قد مات له فى حياته طفل صغير ، هو الذى رثاه ابن عنين ، وقد سبق أن تحدثنا عن هذا الرثاء .

وقد قام الناصر مقام أبيه فى ملك دمشق بعد وفاته ، ويظهر أنه كان يريد أن يتابع سيرة أبيه ، ويجعل عهده امتدادا لهذا العهد الذى عاشه أبوه ، فكان حنفيا مثله ، عالما محبا للعلماء ، مشجعا على دراسة علوم الأوائل ، أديبا كاتبا شاعراً ، يحب جهاد الفرنج ، ويرغب فى لقائهم ، كما كان أبوه من قبل .

ولكن لم يكد المعظم يموت ، حتى تحرك أخواه ، يريدان انتزاع دمشق من يدى ابنه الناصر ، الذى رأى أنه لا قبل له بحرب عميه ، فسلم الكامل دمشق ، على أن يأخذ بدلها الشوبك والكرك ، ولكن أطماعه فى أن يعود يوما إلى دمشق ،

وأن يوسف ملكا كبيرا لم تفارقه طول عمره ، وإن كان الزمن لم يسعفه بتحقيقها، فإن المطلع على تاريخ الأسرة الأيوبية بعد وفاة عمه الملك الكامل يوسفه ما استحكم من الخلاف العنيف الذى دار بين ولدى الكامل فى شدة وقسوة ، وما شب من نزاع بين أبناء الأسرة الأيوبية ، فأخذ بعضهم يحبس بعضا ، ويقتل أحدهم أبناء صاحبه ، وكان الناصر داود من بين هؤلاء الذين اشتركوا فى هذا النزاع المحتدم بين أبناء هذه الأسرة ، غير أنه لم يجن من تدخله فى هذا النزاع ثمرة ما ، بل لقد كان نصيبه بعد أن ساعد الصالح أيوب أن سير هذا إلى الشام من استولى على جميع بلاد الناصر داود ، وخرب ضياع الكرك ، ثم نازلها أياما ، وقل ما عند الناصر من المال والذخائر ، وقل ناصره ، فأنشأ قصيدة يعاتب فيها السلطان، فيا له عنده من اليد فى الدفاع عنه ومساعدته حتى ملك الديار المصرية، وهى:

قل للذى قاسمته ملك اليد ... ونهضت فيه نهضة المستأسد
عاصيت فيك ذوى الحجا من أسرتى ... وأطعت فيك مكارمى وتوددى
يا قاطع الرحم التى صلتى بها ... كتبت على الفلك الأثير بمسجد
عمى أبوك ، ووالدى عم به ... يعلو انتسابك كل ملك أصيد
صالا ، وجالا ، كالأسود ضواريا ... فارتد تيار الفرات المزبد
دع سيف مقولى البليغ يذب عن ... أعراضكم بفرنده المتوقد
فهو الذى قد صاغ تاج فخاركم ... بمفصل من لؤلؤ وزبرجد

ثم أخذ يصف نفسه وجوده ، ومحاسنه ، وسؤدده ، إلى أن قال :

يا محرجى بالقول ، والله الذى ... خضعت لعزته جباه السجد
لولا مقال الهُجر منك لما بدا ... منى افتخار بالقريض المنشد
إن كنت قلت خلاف ما هو شيمتى ... فالحاكمون بمسمع ، وبمشهد
والله ، يا بن العم لولا خيفتى ... لرميت ثغرك بالعداة المرد

لكننى ممن يخاف حرامه ندما يجرعنى سمام الأسود
فأراك ربك بالهدى ما ترتجى لتراك تفعل كل فعل مرشد
لتعيد وجه الملك طلقاً ضاحكا وترد شمل البيت غير مبدد
كى لا ترى الأيام فينا فرصة للخارجين ، وضحكة للحسد

وانتهى المطاف بفقد الناصر ملكه فى الكرك على يد ولديه : الملك الأمجد حسن ، والملك الظاهر شادى ، من غير أن يكون لأبيهما رأى فى النزول عن الكرك ، بل كان غائباً فى بغداد ، حين تنازل ابناه عنهـا ، ولعلهما كانا يريدان أن يقيما فى مصر ، ولكنهما نُفيا منها ، وإليهما ينتهى ما عرفته من ذرية المعظم عيسى .

ويحفظ التاريخ لأبيهما الناصر داود معركة دارت بينه وبين الفرنج ، سنة ٦٣٨ هـ ، وانتصر عليهم فيها ، وغنم منهم أشياء كثيرة .

ويذكر أنه مضى إلى القدس ، فاستعاده من يد الفرنج ، وكان الكامل قد سلمه إليهم ، وبذلك مدحه الشاعر ابن مطروح فقال :

المسجد الأقصى له عادة سارت ، فصارت مثلا سائرا
إذا غدا للكفر مستوطنا أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهّره أولا وناصر طهره آخرا

وقد أرخ للناصر داود ابنه الملك الأمجد فى كتاب بقى لنا إلى اليوم دعاه : الفوائد الدرّية فى الفرائد الناصرية ، وقد قسم الأمجد كتابه قسمين ، وصدّره بمقدمة .

أما المقدمة فذكر فى فصل منها نسبه ، وقد أكد فى هذا النسب أنه ينحدر من العرب من ناحية أبيه ، وإن كان فى أمهاته كرديات وتركيات .

وفى الفصل الثانى تحدث عن مآثره وكرم خلاله .

وأورد الأمجد فى القسم الأول شيئاً من نثر أبيه خطباً ورسائل . وفى القسم الثانى ما حفظه من شعره .

ومن أطرف ما روى من نثره : صفـة مشروب ، يعـالج به داء الذنوب . وهو : الله الشافى بلطفه . شراب مركب نافع ، لشاربه يوم الفزع الأكبر شافع :

يؤخذ من مستحكم مرير الصبر ، وما احلولى من لذيذ الذكر ، فيغربلان بغربال التفكر السهرى ، ويدافان[1] بماء العين النظرى ، ثم يصفى المجموع بلباب العلم التجردى ، ثم يعجن بعسل المحبة الإلهية ، وسفوف التشوقات القدسيـة ، ويطيب بأفاويه العـــزائم الصادقة ، وأبازير القرائح السابقة ، إلى أن يظهر فى ألسنة العقول لهبه ، ويبقى فى شهوة الجد طلبه ، ويطبخ بعد ذلك بسكر الإخلاص والمصافاة ، وماء ورد الملازمة والموافاة ، طبخاً يظهر فى الأحكام آثاره ، على لهب لب تضرمت أنواره ، ويستعمل ممزوجاً بماء دموع جرت ، على ما أجرمت ، وفرطت ، على مافرطت ، بعد الحمية التامة عن موارد الشبهات ، والتجنب عن دواعى الشهوات ، والتـغذى مما لا يوجب التبعات ، إلى أن يظهر فى قارورة القلب استنارة الاعتدال ، ويذهب عنها رسوب الحيرة والضلال ، لعله بعد الإرادة الإلهية يوجب الحياة الدائمة ، لمرضى نفوس بجلال ملكوته هائمة ، فيوصلها عين الوادى المقدس سالمة ، لتبقى على متدفق نهره حائمة ، إذا شربت من كوثره صفت عيشتها ، ودام أنسها بدوحة بهجتها ، وغدت تغرد على غصون السعادة الأبدية ، بنغمات متسقة النسب إلى الدار الأحدية ، بما منحته من تعديد صفات جـلاله ، وترجيع عجائب فعاله ، الدالة على كماله ، وهى مختالة فى حلل الكرامة ، متوجة بتاج البقاء

---

(١) الدوف : الخلط .

فى دار المقامة ، حيث الظل ظليل ، والنائل جزيل ، والملك الحق بكرامة وفده قائم وكفيل ، ورضاه لهم نعم الموئل والمقيل .

يا من هجرت له الأهلين والوطنا　　وصارمت مقلتي في حبه الوسنا
لأشكرن اجتهاداً ، كان آخره　　ما قلد الجيد من تلقائك المننا
فاسمح بقربك للنفس التي حكمت　　لها المطالب أن تحيي بك الزمنا

وهو أسلوب لا يختلف عن أسلوب عصره المغرم بالسجع .

أما الشعر الذى رواه له ولده فرتبه على عشرة أبواب : الأول فى الإلهيات والزهديات . والثانى فى المديح ، وفيه الحماسة والفخر ، والثالث فى عتاب الأصحاب والاستنصار عليهم بالله ، والرابع فى المراثى ، والخامس فى الشوق إلى الإخوان والحنين إلى الأوطان ، والسادس فى النسيب ، والسابع فى الغزل ، والثامن فى الخمريات ، والتاسع فى الطرديات ، والعاشر فى اللغز . وذلك يدل على سعة الميدان الذى جرى فيه الناصر . وقد أوردنا بعض شعره ، ومما قاله :

قلبي وطرفك قاتل وشهيد　　ودمى على خديك منه شهود
يأيها الرشأ الذى لحظاته　　كم دونهن صوارم وأسود
ومن العجائب أن قلبك لم يلن　　لى ، والحديد ألانه داود

وتوفى الناصر فى جمادى الأولى سنة ٦٥٦ هـ ، ودفن عند والده الملك المعظم .
والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

حلوان الحمامات فى { ٢٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٢هـ.
١٤ مارس سنة ١٩٥٣ م .

مراجع البحث

أحمد أحمد بدوى :

١ — الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام (مطبعة نهضة مصر).

أحمد بن عبدالوهاب النويرى ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ .

٢ — نهاية الأرب فى فنون الأدب (مصور بدار الكتب ، رقم ٥٤٩ معارف عامة) .

أحمد بن على الخطيب البغدادى ، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ :

٣ — تاريخ بغداد . (مصر سنة ١٣٤٩ هـ — ١٩٣١ م) .

أحمد بن على المقريزى ، المتوفى سنة ٨٤٥ هـ :

٤ — كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .

بتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة . (القاهرة سنة ١٩٣٩ م) .

أحمد بن القاسم بن خليفة بن أبى أصيبعة ، المتوفى سنه ٦٦٨ هـ :

٥ — عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . (المطبعة الوهبية سنة ١٨٨٢ م) .

أحمد بن محمد بن خلكان ، المتوفى سنة ٦٨١ هـ :

٦ — وفيات الأعيان . (المطبعة الميمنية سنة ١٣١٠ هـ) .

أحمد بن محمد بن على الفيومى ، المتوفى سنة ٧٧؟ هـ :

٧ — نثر الجمان فى تراجم الأعيان . (مخطوط بدار الكتب ، رقم ١٧٤٦ تاريخ).

إسماعيل بن على بن محمود بن عمر : الملك المؤيد ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ :

٨ — المختصر فى أخبار البشر . (دار الطباعة بالآستانة سنة ١٢٨٦ هـ) .

جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوى ، المتوفى سنة ٧٤٨ هـ .

٩ — الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد . (المطبعة الجمالية سنة ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م) .

الأمجد الحسن بن الناصر داود بن المعظم عيسى :

١٠ — الفوائد الدرية فى الفرائد الناصرية . (مصور بدار الكتب ، رقم ٢٢٩٣ — أدب) .

خليل بن أيبك الصفدى ، المتوفى سنة ٧٦٤ هـ :

١١ — تذكرة الصفدى . (مخطوط بدار الكتب ، رقم ٤٢٠ — أدب) .

١٢ — الوافى بالوفيات . (مصور بدار الكتب ، رقم ١٢١٩ — تاريخ) .

خير الدين الزركلى :

١٣ — الأعلام . (المطبعة العربية بمصر سنة ١٣٤٥ هـ ـ ١٩٢٧م)

عبدالحى بن أحمد بن محمد العماد الحنبلى ، المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ :

١٤ — شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . (عنى بنشره حسام الدين القدسى سنة ١٣٥٠هـ) .

عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ، المتوفى سنة ٩١١ هـ :

١٥ — بغية الوعاة . (مطبعة السعادة سنة ١٣٢٦ هـ) .

عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسى ، المتوفى سنة ٦٦٥ هـ :

١٦ — الروضتين فى أخبار الدولتين . (مصر سنة ١٢٨٧ هـ) .

١٧ — ذيل الروضتين . (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧ م) .

عبدالرحيم بن على بن شيث ، المتوفى سنة ٦٢٥ هـ :

١٨ — معالم الكتابة ومغانم الإصابة . (طبع بيروت سنة ١٩١٣ م) .

محيى الدين عبدالقادر بن محمد النعيمى ، المتوفى سنة ٩٢٧ هـ :

١٩ — تنبيه الطالب وإرشاد الدارس ، فيما بدمشق من الجوامع والمدارس . (مخطوط بالمكتبة التيمورية ، رقم ١٤٩٨ تاريخ) .

عبدالقادر بن محمد القرشي التميمي المصري ، المتوفى سنة ٧٧٥ هـ :

٢٠ — الجواهر المضية في طبقات الحنفية . (مخطوط بدار الكتب ، رقم ١٥٩ م تاريخ) .

على بن رستم الخراساني : ابن الساعاتي ، المتوفى سنة ٦٠٤ هـ :

٢١ — ديوان ابن الساعاتي . (طبع بيروت سنة ١٩٣٩ م) .

على بن محمد بن الأثير ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ :

٢٢ — الكامل في التاريخ . (الطبعة الأولى سنة ١٣٠١ هـ) .

عمر بن الوردي ، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ :

٢٣ — تاريخ ابن الوردي . المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٥ هـ) .

عيسى بن أبي بكر بن أيوب : الملك المعظم ، المتوفى سنة ٦٢٤ هـ :

٢٤ — السهم المصيب في كبد الخطيب . (مطبعة السعادة سنة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م) .

الفتح بن على البنداري :

٢٥ — الشاهنامة — نشرها الدكتور عبدالوهاب عزام . (مطبعة دار الكتب سنة ١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م) .

قاسم بن قطلوبغا ، المتوفى سنة ٨٧٩ هـ :

٢٦ — تاج التراجم في طبقات الحنفية . (طبع ليبسك سنة ١٢٨٨ هـ — ١٨٦٢ م) .

محمد بن أحمد المعروف بابن إياس المصري ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ :

٢٧ — بدائع الزهور في وقائع الدهور . (طبع بولاق سنة ١٣١١ هـ) .

محمد أمين بن حبيب ، من علماء القرن الثالث عشر :

٢٨ — طبقات الفقهاء والعباد والزهاد . (مخطوط بدار الكتب، رقم ١٦٦ تاريخ).

شمس الدين محمد المعروف بالذهبي ، المتوفى سنة ٧٤٨ ه :

٢٩ — تاريخ الإسلام . (مخطوط بدار الكتب، رقم ١٤٥٢ تاريخ).

محمد بن سالم بن واصل ، المتوفى سنة ٦٩٧ ه :

٣٠ — مفرج الكروب فى دولة بنى أيوب . (مصور بدار الكتب، رقم ٥٣١٩ تاريخ) .

محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي ، المتوفى سنة ٧٦٤ ه :

٣١ — فوات الوفيات . (مطبعة بولاق سنة ١٢٩٩ ه) .

محمد عبدالحى اللكنوى الهندى

٣٢ — الفوائد البهية فى تراجم الحنفية . (مطبعة السعادة ١٣٢٤ ه) .

محمد بن عبدالرحمن الدمشقى :

٣٣ — ديوان الإسلام . (مخطوط بدار الكتب ، رقم ٢٢٠٨ تاريخ) .

محمد الطيب بن عبدالله . (من علماء النصف الأول من القرن العاشر الهجرى) .

٣٤ — قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر . (مخطوط بدار الكتب ، رقم ٤٤١٠ تاريخ) .

محمد فريد أبو حديد :

٣٥ — صلاح الدين الأيوبى وعصره (مطبعة دار الكتب سنة ١٣٤٦ ه — ١٩٢٧ م) .

محمد كرد على :

٣٦ — خطط الشام (طبع دمشق سنة ١٣٤٦ ه) .

محمد بن نصر بن عنين ، المتوفى سنة ٦٣٠ ه :

٣٧ — ديوان ابن عنين (مطبعة دمشق سنة سنة ١٩٤٦ م) .

محمود بن سليمان الشهير بالكفوى الحنفى :

٣٨ — كتائب أعلام الأخيار من فقهاء مذهب النعمان المختار .
(مخطوط بدار الكتب رقم ٨٤ م تاريخ) .

مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجى خليفة ، المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ — ١٦٥٧ م .

٣٩ — كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . (طبع الآستانة سنة ١٩٤١ م) .

ياقوت الرومى ، المتوفى سنه ٦٢٦ هـ :

٤ — معجم البلدان . (مطبعة السعادة سنة ١٣٢٣ هـ) .

يوسف بن تغرى بردى الأتابكى :

٤١ — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . (مطبعة دار الكتب سنة ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٥ م) .

يوسف بن قزأوغلى : سبط ابن الجوزى ، المتوفى سنة ٦٥٤ هـ :

٤٢ — مرآة الزمان . (مخطوط بدار الكتب ، رقم ٢١٨١ تاريخ) .

٤٣ — Encyclopédie de L'Islam.
Livraison 47. P. 663.
Paris 1913.

الفهرس

للمـــؤلف

(ا) تأليف :

١ — شاعر بنى حمدان . (الطبعة الثانية ـ مطبعة لجنة البيان العربى سنة ١٩٥٢م).
٢ — رفاعة الطهطاوى بك . (مطبعة لجنة البيان العربى سنة ١٩٥٠ م) .
٣ — من بلاغة القرآن . (مطبعة لجنة البيان العربى سنة ١٩٥٠ م) .
٤ — مأمون بنى أيوب . (مطبعة لجنة البيان العربى سنة ١٩٥٣ م) .
٥ — الحياة العقلية ، فى عصر الحروب الصليبية ، بمصر والشام . (مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٢ م) .
٦ — الحياة الأدبية ، فى عصر الحروب الصليبية ، بمصر والشام . « تحت الطبع » .
٧ — عصر الحروب الصليبية ، بمصر والشام . (يتناول الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والحربية) . « تحت الطبع » .

(ب) تحقيق :

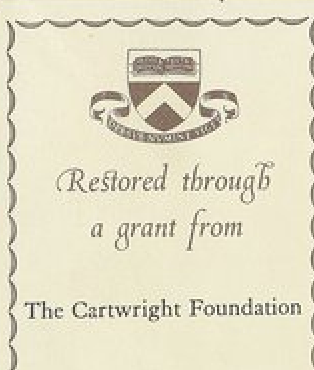
١ — ديوان المعتمد بن عباد . (بالاشتراك) — المطبعة الأميرية سنة ١٩٥١م .
٢ — ديوان أسامة بن منقذ . (بالاشتراك) — المطبعة الأميرية سنة ١٩٥٣م .
٣ — المطرب من أشعار أهل المغرب (بالاشتراك) — المطبعة الأميرية سنة ١٩٥٣م .
٤ — ديوان القاضى الفاضل . « تحت الطبع » .
٥ — الدر النظيم ، من ترسل عبد الرحيم . « تحت الطبع » .
٦ — شعر طلائع بن رزيك « تحت الطبع »
٧ — البديع فى نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ . (بالاشتراك) . « تحت الطبع »

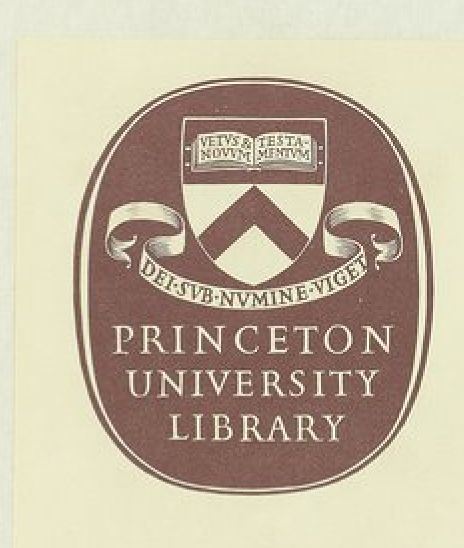
(حـ) ترجمة :

ديوان المتنبى فى العالم العربى ، وعند المستشرقين .
(القسم الثانى من كتاب المتنبى ، للمستشرق : الدكتور بلاشير) .
(مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٢٥) .

[تم طبع كتاب « مأمون بنى أيوب »
فى مطبعة لجنة البيان العربى بالقاهرة فى يوم
الثلاثاء ٢ من رجب ١٣٧٢ الموافق (١٧ من
مارس ١٩٥٣) . والحمد لله أولاً وآخراً]

سيد محفوظ كامل
المدير الفنى للمطبعة


Restored through
a grant from
The Cartwright Foundation


VETVS & NOVVM TESTAMENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY


BOUND BY
HNM